

دعوة النبي ﷺ
في مرحلة الاستخفاء
في العهد المكي

تأليف

د. علي بن أحمد الأحمد

الأستاذ المشارك بقسم الدعوة والاحتساب
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار التوجيه الإسلامي

الرياض

ح) علي أحمد الأحمد، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الأحمد، علي أحمد

دعوة النبي ﷺ في مرحلة الاستخفاء في العهد المكي: دراسة

تحليلية. / علي أحمد الأحمد. - الرياض، ١٤٣٠هـ

٨٠ ص: ٢٤×١٧ سم

ردمك: ١ - ٣٥٢٨ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

أ- العنوان

١- السيرة النبوية

١٤٣٠/٦٥٦٤

ديوي ٢٣٩

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٦٥٦٤

ردمك: ١ - ٣٥٢٨ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

الناشر

دار التوعية الإسلامية

المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ١٠٤٦٤ الرمز البريدي ١١٤٣٣

هاتف ٠٠٩٦٦١٢٦٧٨٨٧٨ وناسوخ ٠٠٩٦٦١٤٢٨٠٤٠٤

البريد الإلكتروني، E-mail: dar.attawheed.pub.sa@gmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله..

أما بعد:

فتأمل دعوة النبي ﷺ في العهد المكي نجد أنها مرت بمرحلتين مرحلة «الاستخفاء» ومرحلة «الجهر»^(١).

وقد ابتدأت مرحلة الاستخفاء بالدعوة بعد النبوة مباشرة، روى ابن سعد عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ «يدعو من أول ما نزلت عليه النبوة مستخفياً..»^(٢).

واستمر رسول الله ﷺ بالاستخفاء بالدعوة إلى الله ثلاث سنوات، كما حدد ذلك ابن إسحاق وابن سعد وأبو نعيم وابن هشام وغيرهم^(٣).

(١) الدعوة في العهد المكي استمرت ثلاثة عشر عاماً: ثلاثة أعوام هي مرحلة الاستخفاء وعشرة أعوام هي مرحلة الجهر.

(٢) الطبقات الكبرى - لابن سعد، ط [الأولى، الناشر دار صادر - بيروت] ١/ ١٩٩.

(٣) انظر: سيرة ابن إسحاق، ط [الأولى الناشر: معهد الدراسات والأبحاث]. و السيرة النبوية لابن هشام، ط [الأولى، عام ١٤١١ هـ الناشر: دار الجيل - بيروت] ت: طه عبد الرؤوف سعد ١/ ٢٤٩

ومرحلة الاستخفاء بما اشتملت عليه من مواقف وأحداث وأحوال تتصل بجانب الدعوة لها أهمية خاصة يمكن إبراز بعضها من خلال الآتي:

١- أنها بكامل تفاصيلها هي جزء متصل بسيرة النبي ﷺ وسبيله في الدعوة إلى الله تعالى المستند إلى البصيرة .

٢- قيام النبي الكريم ﷺ بخوض غمارها بوعي كامل ورؤية ثاقبة لما يحيط بالدعوة من عقبات وعوائق وفق مسلك حكيم أثمر بعد توفيق الله انطلاق الدعوة إلى العلنية ومن ثم إلى العالمية.

٣- أهمية تحرير هذه المسألة تحريراً علمياً ودراستها بمنأى عن الارتجال والعواطف.

٤- حاجة الدعوة إلى الله لمثل هذه الدراسة في ظل تعدد التيارات والاتجاهات لإدراك ما تنطوي عليه تطبيقات الاستخفاء بالدعوة في العصر الحاضر من أبعاد وآثار وتصورها تصورًا صحيحًا.

واستناداً لما سبق رأيت من المناسب دراسة هذه المرحلة وعرضها عرضاً علمياً يحلل جوانبها وفقاً لما يتاح من علم في ضوء النصوص الشرعية والحوادث والمواقف التي جرت في تلك المدة الوجيزة^(١) سعياً لفهم موضوع الدراسة، فهما سليماً يرتكز على نصوص شرعية وحقائق علمية^(٢).

والطبقات الكبرى - لابن سعد، ١ / ١٩٩.

(١) قياساً بتاريخ دعوة النبي ﷺ التي استمرت ٢٣ عاماً في كل من مكة والمدينة.

(٢) حُكِّمَت هذه الدراسة ونشرت في مجلة البحوث الإسلامية التي تصدرها الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء في عددها الثاني والثمانين عام ١٤٢٨ هـ.

* وقد قسمت الدراسة إلى أربعة مباحث وفق الفقر الآتية:

* المبحث الأول: مرحلة الاستخفاء في ضوء النصوص:

ويشمل أربعة مطالب:

المطلب الأول: دلالة نصوص القرآن الكريم.

المطلب الثاني: دلالة نصوص السنة الشريفة.

المطلب الثالث: دلالة أقوال الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

المطلب الرابع: دلالة أقوال العلماء والمؤرخين - رحمهم الله -.

* المبحث الثاني: معالم دعوة النبي ﷺ في مرحلة الاستخفاء:

ويشمل أربعة مطالب:

المطلب الأول: ميدان الدعوة في مرحلة الاستخفاء.

المطلب الثاني: وسائل الدعوة في مرحلة الاستخفاء وأساليبها.

المطلب الثالث: مضمون الدعوة في مرحلة الاستخفاء.

المطلب الرابع: أصناف المدعوين في مرحلة الاستخفاء.

* المبحث الثالث: مفهوم الاستخفاء في دعوة النبي ﷺ وسماتها:

ويشمل مطلبين:

المطلب الأول: مفهوم الاستخفاء في دعوة النبي ﷺ.

المطلب الثاني: سمات الاستخفاء في دعوة النبي ﷺ.

* المبحث الرابع: تطبيقات الاستخفاء بالدعوة في العصر الحاضر:

ويشمل مطلبين:

المطلب الأول: الاستخفاء بالدعوة في المجتمعات الدعوية.

المطلب الثاني: الاستخفاء بالدعوة في المجتمعات غير الدعوية.

ثم الخاتمة وفيها أبرز النتائج.

هذا وأسأل الله تعالى أن يقبل هذا العمل، وأن يكون من العلم الذي ينتفع به،

وصلّى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

علي بن أحمد الأحمد

عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام

ص. ب ٩٧٤٧ الرمز البريدي ١١٤٢٣

الرياض - المملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني al_ah@hotmail.com

المبحث الأول

مرحلة الاستخفاء في ضوء النصوص

• المطلوب الأول: دلالة نصوص القرآن الكريم:

ألمح القرآن الكريم إلى استخفاء النبي ﷺ بالدعوة إلى الله تعالى بإشارة تفيد تقدم تلك المرحلة ونهايتها بالأمر بالصدع قال تعالى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١)، ولا ريب أن هذا يومئ إلى أن النبي ﷺ كان يدعو إلى الله خفية من قبل ذلك، فقد أخرج ابن جرير عن عبد الله بن عبيدة أنه قال: «ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزل ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فخرج هو وأصحابه»^(٢).

قال الثعالبي في تفسيره: وقوله سبحانه: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ معناه: «انفذ وصرح بما بعثت به»^(٣).

وقال الواحدي في هذا الصدد: «ولم يزل النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾»^(٤).

وأشار الإمام البغوي إلى هذا المعنى بقوله: «أمر النبي ﷺ في هذه الآية

(١) سورة: الحجر. آية: ٩٤.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن - للإمام أبي جعفر الطبري، ط [الأولى، عام: ١٤٢٢ هـ، الناشر: دار هجر - القاهرة] ت: د. عبدالله التركي، ١٤٣/١٤.

(٣) الجواهر الحسان في تفسير القرآن - للثعالبي، ط [الأولى، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت] ٣٠١/٢.

(٤) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - للواحدي، ط [الأولى، عام ١٤١٥ هـ، الناشر: دار القلم - دمشق] ت: صفوان عدنان داودي، ٥٩٨/١.

بإظهار الدعوة»^(١).

وكان قد أنزل عليه من قبل الأمر بالإنذار في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدْتِرُّ﴾^(١) ﴿فَأَنْذِرْ﴾^(٢) فاستمر ﷺ مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله ثلاث سنين مستخفياً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «أول ما أنزل من القرآن ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾^(٣) عند جماهير العلماء وقد قيل قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدْتِرُّ﴾ روى ذلك عن جابر والأول أصح فإن ما في حديث عائشة الذي في الصحيحين يبين أن أول ما نزل ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ نزلت عليه وهو في غار حراء وأن المدثر نزلت بعد، وهذا هو الذي ينبغي فإن قوله: ﴿أَقْرَأْ﴾؛ أمر بالقراءة لا بتبليغ الرسالة وبذلك صار نبياً، وقوله: ﴿فَأَنْذِرْ﴾؛ أمر بالإنذار وبذلك صار رسولاً منذراً»^(٤).

وهذا الإنذار وما يتطلبه من أمور كان في طور الاستسرار بالدعوة حيث كانت الدعوة بعد البعثة قائمة سرّاً كما تقدم إلى أن أمر الله نبيه ﷺ بالصدع بأمر الدعوة.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «كان رسول الله ﷺ يستر النبوة ويدعو إلى الإسلام سرّاً.. فلما مضت من النبوة ثلاث سنين نزل قوله ﷻ: ﴿فَأَصْدَعْ﴾ فأظهر الدعوة»^(٥).

(١) معالم التنزيل - للإمام أبي محمد الحسين البغوي، ط [الأولى، عام: ١٤٠٩ هـ الناشر: دار طيبة - الرياض]. ت: محمد عبد الله النمر وآخرون ٤ / ٣٩٥.

(٢) سورة المدثر. آية رقم: ٢٠١.

(٣) سورة: العلق. آية رقم: ١.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية - جمع وترتيب الشيخ عبد الرحمن بن قاسم وابنه، ط [الأولى، عام: ١٤١٦ هـ الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة] ١٦ / ٢٢٥.

(٥) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - لابن الجوزي ط [الأولى، الناشر: دار صادر بيروت] ٢ / ٣٦٤.

وفي ضوء أقوال المفسرين حول الآية تتضح تلك الإشارة القرآنية إلى مرحلة الاستخفاء التي مرّ بها النبي ﷺ والتي تضمنت ستر النبوة والدعوة إلى الله تعالى سرًا.

• المطلب الثاني: دلالة نصوص السنة الشريفة:

مما يشير إلى مرحلة استخفاء النبي ﷺ بالدعوة إلى الله من خلال السنة النبوية ما أخرجه الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ أَنْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي قِصَّةِ إِسْلَامِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي أَوَائِلِ الْمَرَحَلَةِ الْمَكِّيَّةِ أَنَّهُ قَالَ لَهُ بَعْدَ أَنْ أَسْلَمَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَكْتُمُوا هَذَا الْأَمْرَ، وَارْجِعْ إِلَى بَلَدِكَ فَإِذَا بَلَغَكَ ظُهُورُنَا فَأَقْبِلْ»^(١).

وأخرج الإمام مسلم: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِعَمْرٍو بْنِ عَبْسَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَعْدَ أَنْ أَسْلَمَ: «إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا، أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ؟ وَلَكِنْ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي..»^(٢).

وأخرج الإمام البخاري معلقًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْمِقْدَادِ: «إِذَا كَانَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ يُخْفِي إِيمَانَهُ مَعَ قَوْمٍ كُفَّارٍ فَأَظْهَرَ إِيمَانَهُ فَقَتَلْتَهُ فَكَذَلِكَ كُنْتَ أَنْتَ تُخْفِي إِيمَانَكَ بِمَكَّةَ مِنْ قَبْلُ»^(٣).

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب: كتاب المناقب، باب: قصة زمزم. رقم الحديث:

٣٢٦١، ط [الأولى، عام: ١٤١٧هـ، الناشر: دار السلام - الرياض]. رقم الحديث: ٣٢٦١.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: صلاة المسافرين، باب: إسلام عمرو بن عبسة، رقم

الحديث: ١٣٧٤. ط [الأولى، عام: ١٤١٩هـ، الناشر: دار السلام - الرياض] رقم الحديث:

١٣٧٤.

(٣) أخرجه البخاري كتاب الدييات باب: قول الله تعالى ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا، رقم الحديث:

٦٣٨٥.

وروي أنه لما دعا علياً إلى الإسلام وطلب علي رضي الله عنه الإمهال قال له ﷺ: «يا علي إذا لم تسلم فاكنتم»^(١).

وهذه النصوص تكشف لنا عن واقع دعوة النبي الكريم ﷺ في أوائل البعثة وأنها كانت في طور الاستسرار حيث لم يحن بعد الأمر بالجهر.

• المطلب الثالث: دلالة أقوال الصحابة:

إن استخفاء النبي ﷺ بالدعوة قد جاء ذكره صريحاً على لسان بعض الصحابة، ومن ذلك ما أخرجه الإمام مسلم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قَالَ عَمْرُو بْنُ عَبْسَةَ السُّلَمِيُّ رضي الله عنه: «كُنْتُ - وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ - أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَنْهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا..»^(٢).

وثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^(٣): قال: نزلت ورسول الله ﷺ «مختفياً بمكة..»^(٤).

وفي رواية عنه قال: أنزلت ورسول الله ﷺ «متوارياً بمكة..»^(٥).

وروى أبو جعفر بن أبي شيبه في «تاريخه» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن عمر رضي الله عنه لما أسلم قال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ فَفِيمَ الْإِخْتِفَاءِ؟ فَخَرَجْنَا فِي صَفَيْنِ: أَنَا فِي

(١) البداية والنهاية - للحافظ ابن كثير، ط [الأولى، عام: ١٤١٩ هـ الناشر: دار هجر - مصر] ٢٤/٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: صلاة المسافرين، باب: إسلام عمرو بن عبسة، رقم الحديث:

١٣٧٤.

(٣) سورة: الإسراء. جزء من: ١١٠.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تفسير القرآن، باب: ولا تجهر بصلواتك: رقم ٤٣٥٣.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب: ولا تجهر بصلواتك: رقم ٤٣٥٣.

أَحَدَهُمَا ، وَحَمَزَةٌ فِي الْآخِرِ..»^(١).

• المطلب الرابع: دلالة أقوال العلماء والمؤرخين المتقدمين:

قال ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللهُ ضَمَنَ سِيَاقَ عَرَضِ سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَهَدِيهِ: «وَأَقَامَ بَعْدَ ذَلِكَ ثَلَاثَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ مُسْتَخْفِيًا ثُمَّ نَزَلَ عَلَيْهِ ﴿فَأَصْدَعَ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢)، فَأَعْلَنَ ﷺ بِالدَّعْوَةِ وَجَاهِرَ قَوْمَهُ..»^(٣).

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَرُ النَّبُوَّةَ وَيَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ سِرًّا.. فَلَمَّا مَضَتْ مِنَ النَّبُوَّةِ ثَلَاثَ سِنِينَ نَزَلَ قَوْلُهُ ﷺ: ﴿فَأَصْدَعَ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فَأَظْهَرَ الدَّعْوَةَ»^(٤).

وأخرج ابن سعد بإسناده عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ «يدعو من أول ما نزلت عليه النبوة ثلاث سنين مستخفياً إلى أن أمر بالظهور»^(٥).

قال ابن هشام رَحِمَهُ اللهُ: «وكان بين ما أخفى رسول الله أمره واستتر به إلى أن أمره الله بإظهار دينه؛ ثلاث سنين من مبعثه»^(٦).

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري - للحافظ ابن حجر، ط [الأولى، عام: ١٤٠٧ هـ، الناشر: دار

الريان للتراث - القاهرة] ٧ / ٤٨.

(٢) سورة: الحجر. آية: ٩٤.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد - للإمام ابن قيم الجوزية. ط [الرابعة عشر، عام: ١٤٠٧ هـ، الناشر:

مؤسسة الرسالة - بيروت] ١ / ٨٦.

(٤) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - لابن الجوزي ٢ / ٣٦٤.

(٥) الطبقات الكبرى - لابن سعد ١ / ١٩٩.

(٦) السيرة النبوية - لابن هشام ١ / ٢٤٩.

وساق الواقدي رَحِمَهُ اللهُ بِإِسْنَادِهِ «أن رسول الله ﷺ أقام بمكة ثلاث سنين من أول نبوته مستخفياً ثم أعلن في الرابعة»^(١)

مما سبق تتجلى مرحلة استخفاء النبي ﷺ بالدعوة، وهي مرحلة مهمة، ولها معالمها الخاصة كما سيتضح في المبحث التالي.

* * *

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد - للإمام ابن قيم الجوزية، ٤٣/٣.

المبحث الثاني

معالم دعوة النبي ﷺ في مرحلة الاستخفاء

• المطلب الأول: ميدان الدعوة في مرحلة الاستخفاء:

من المعلوم أن النبي ﷺ قد قام بالدعوة إلى الله بعد البعثة مباشرة استجابة لأمر الله في قوله: ﴿بِأَيِّهَا الْمَدِينَةُ ۖ قُرْآنًا نَّذِرًا﴾^(١) لكنه في تلك المرحلة كان غير مجاهر بالدعوة ولا صادع بها إذ لم يؤمر بذلك بعد، واستمرت دعوته ثلاث سنين على هذا النسق، وأسلم على يديه كثير ممن أكرمهم الله بفضيلة السبق.

ولم يكن ثمة مكان خاص بدعوته قبل دار الأرقم، وإنما الدعوة إذاك حسب الحال ما اتفق. ويؤكد هذا أن كثيرًا من العلماء يؤرخون إسلام بعض الصحابة بأنه تحديدًا كان قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم، ولذا قال ابن سعد في الطبقات الكبرى: «فإن جماعة أسلموا قبل دخوله ﷺ دار الأرقم»^(٢). فالدعوة إذن في تلك

(١) سورة المدثر. آية رقم: ١ و٢.

(٢) السيرة الحلبية في سيرة الأمين والمأمون - علي بن برهان الدين الحلبي، ط [الأولى، عام ١٤٠٠ هـ الناشر: دار المعرفة - بيروت] ١ / ٤٥٦. وقد تبعت عددًا من نص المؤرخون بأن إسلامهم كان قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم - بهذا النص -؛ فوجدتهم خمسة عشر رجلاً وامرأتين، وهم وفقاً لترتيب الأحرف كما يلي:

١- أبو حذيفة بن ربيعة القرشي رضي الله عنه.

٢- أبو سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه.

٣- أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه.

٤- أسماء بنت عميس رضي الله عنها.

٥- حاطب بن عمرو بن عبد شمس رضي الله عنه.

المرحلة لم يكن لها مكان خاص بها، ولكن حينما لاقى بعض المستجيبين للدعوة أذى وعذاباً؛ اتخذ النبي ﷺ داراً يستخفي فيها معهم، وذلك تحديداً بعد حادثتين:

الأولى: فقد ذكر ابن إسحاق أنه كان من أسلم إذا أراد الصلاة يذهب إلى بعض الشعاب يستخفي بصلاته من المشركين فبينما سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شعب من شعاب مكة إذا ظهر عليه نفر من المشركين وهم يصلون فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم فضرب سعد بن أبي وقاص رجلاً منهم بلحى بعير فشجه فهو أول دم أهرق في الإسلام

٦- خباب بن الارت رضي الله عنه.

٧- رملة بنت أبي عوف رضي الله عنها.

٨- سعيد بن زيد رضي الله عنه.

٩- عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه.

١٠- عبدالله بن جحش الأسدي رضي الله عنه.

١١- عبدة بن الحارث بن عبدالمطلب رضي الله عنه.

١٢- عثمان بن عفان رضي الله عنه.

١٣- عياش بن أبي ربيعة بن المغيرة رضي الله عنه.

١٤- عثمان بن مظعون رضي الله عنه.

١٥- مسعود بن الربيع القاري رضي الله عنه.

١٦- معمر بن الحارث الجمحي رضي الله عنه.

١٧- واقد بن عبدالله التميمي رضي الله عنه.

انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب - لابن عبد البر، ط [الأولى، عام ١٤١٢ هـ الناشر: دار الجيل - بيروت]. والإصابة في تمييز الصحابة - للمحافظ ابن حجر العسقلاني، ط [الأولى، عام: ١٤١٥ هـ، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت] وسير أعلام النبلاء - للإمام للذهبي. وهذا الحصر - كما تقدم - خاص بمن تم التنصيص عليه - حسب اطلاعي - بأنه أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم وإلا فهم أكثر من هذا العدد فليتنبه لذلك.

ثم دخل ﷺ وأصحابه مستخفين في دار الأرقم بعد هذه الواقعة^(١).

الحادثة الثانية: روى البلاذري أنه بينما كان رجلان من المسلمين يصليان في إحدى شعاب مكة، هجم عليهما رجلان من المشركين، فناقشوهما ورموهما بالحجارة ساعة، حتى خرجا فانصرفا.

تركت هاتان الحادثتان تأثيرهما على مسيرة الدعوة وعلى المستجيبين لها؛ ما حمل الرسول ﷺ إلى أن يأمر أتباعه بالتخفي والتزام البيوت مدة من الزمن حتى تستقر الأوضاع، فدخل هو وجماعة من أصحابه دارًا خصصها للدعوة وهي للأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه وكان قد أسلم قال الإمام الذهبي عندما ترجم له: «صاحب النبي ﷺ. من السابقين الأولين.. وقد استخفى النبي ﷺ في داره، وهي عند الصفا»^(٢)، ومن أبرز وظائفها ما يلي:

* أولاً: مباشرة الدعوة مع المستجيبين لها ومن يرغب من الناس بالإسلام:

لقد وظّف النبي ﷺ هذه الدار لتكون ميدانًا يتيح له تقديم الدعوة للناس، فقد أخرج ابن سعد في الطبقات بإسناده «أن خباب بن الأرت رضي الله عنه أسلم قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم، وقبل أن يدعو فيها»^(٣) في إشارة إلى أن أهم أعمال النبي ﷺ فيها هي الدعوة إلى الله تعالى.

وأخرج ابن سعد في الطبقات بإسناده عن عثمان بن الأرقم أنه قال:

«وكانت داره - أي: الأرقم - بمكة على الصفا وهي الدار التي كان النبي ﷺ يكون فيها أول الإسلام وفيها دعا الناس إلى الإسلام وأسلم فيها قوم كثير»^(٤).

(١) انظر السيرة الحلبية ١ / ٤٥٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢ / ٤٧٨.

(٣) الطبقات الكبرى ١ / ١٥٧.

(٤) المرجع السابق ٣ / ٢٤٣.

وأما من جاءت ترجمته من المدعوين أنه أسلم في دار الأرقم تحديدًا كثرمة لتطبيقاته ﷺ العملية للدعوة فيها فمن أبرزهم:

- بنو أبي البكير بن عبد ياليل رضي الله عنهم: فقد ذكرهم ابن سعد بقوله: «أسلم عاقل وعامر وإياس وخالد بنو أبي البكير بن عبد ياليل جميعًا في دار الأرقم وهم أول من بايع رسول الله فيها»^(١)

- أم أبي بكر الصديق رضي الله عنها: هي سلمى بنت صخر قال ابن سعد: «أسلمت قديمًا في دار الأرقم بن أبي الأرقم وبايعت النبي ﷺ وماتت مسلمة». ذكره الحافظ الدمشقي وصاحب الصفوة وغيرهما^(٢)

- مصعب بن عمير رضي الله عنه جاء في ترجمته أنه: «دخل على رسول الله ﷺ دار الأرقم وكنتم إسلامه، وكان يختلف إلى رسول الله سرًّا»^(٣).

وفي الاستيعاب: «بلغه أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام في دار الأرقم فدخل وأسلم وكنتم إسلامه خوفًا من أمه وقومه وكان يختلف إلى رسول الله سرًّا».

- طليب بن عمير رضي الله عنه ذكر ابن سعد والواقدي أنه «أسلم في دار الأرقم»^(٤).

- عمار بن ياسر، وصهيب بن سنان رضي الله عنهما: ورد في الطبقات أن عمار قال: لقيت صهيب بن سنان على باب دار الأرقم ورسول الله فيها فقلت: ما تريد؟ فقال لي: ما تريد أنت؟ فقلت: أردت أن أدخل على محمد فأسمع كلامه قال:

(١) المرجع السابق ٣/٣٨٨ والاستيعاب ١/١٢٤.

(٢) صفة الصفوة - لابن الجوزي ط [الثانية، عام ١٣٩٩ هـ الناشر: دار المعرفة - بيروت] ت: د. محمد رواس قلعه جي ١/٣٩٧.

(٣) صفة الصفوة - لابن الجوزي ١/٣٩٠.

(٤) الطبقات الكبرى ١/١٢٣.

وأنا أريد ذلك، قال: فدخلنا عليه فعرض علينا الإسلام فأسلمنا^(١).

* ثانيًا: التخطيط للدعوة:

ومن وظائف دار الأرقم أنها كانت ميدانًا للتفكير في أحوال الدعوة وبحث سبل دعمها والحفاظ على مكتسباتها ولذلك ورد أن دعاء النبي ﷺ بأن يعز الله الإسلام ويؤيده بالأقوياء كان في هذه الدار فعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اعِزَّ الْإِسْلَامَ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ»^(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ اعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ يَا بِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ» قَالَ: وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ^(٣). وقد ورد أن تلك الدعوة كانت يوم الأربعاء وأسلم عمر يوم الخميس^(٤).

ومما يشير إلى ذلك ما رواه أنس رضي الله عنه أن عمر رضي الله عنه لما كان من شأنه مع أخته وزجها سعيد بن زيد ما كان ورغب في الإسلام خرج إليه خباب فقال: أَبَشِرْ يَا عُمَرُ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونَ دَعْوَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكَ.

(١) انظر: الطبقات الكبرى ٣/ ٢٢٧.

(٢) أخرجه ابن ماجة بلفظ: «اللَّهُمَّ اعِزَّ الْإِسْلَامَ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ خَاصَّةً» انظر السنن لابن ماجة المقدمة باب: فضل عمر بن الخطاب رقم ١٠٢ وقال الألباني: صحيح دون قوله خاصة. انظر: صحيح السيرة النبوية، ط [الأولى، عام: ١٤٢١هـ الناشر: المكتبة الإسلامية - الأردن] ص/ ١٩٣.

(٣) أخرجه الإمام الترمذي في الجامع، ط [الأولى، عام: ١٤٠٨هـ الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت]. رقم: ٣٧٦٤. قَالَ أَبُو عَيْسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ. انظر: صحيح الترمذي ٣/ ٢٠٤ رقم ٢٩٠٧.

(٤) انظر: الجواب الصحيح - شيخ الإسلام ابن تيمية، ط [الأولى، عام: ١٤١٤هـ الناشر: دار العاصمة - الرياض] ٦/ ٣١٢.

«فَأَصْبَحَ فَعَدَا عُمَرُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلَمَ»^(١)، ودعيت دار الأرقم دار الإسلام^(٢).

ولقد عز الله الإسلام بعمر استجابة لدعائه، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «مَازِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ»^(٣).

وقال: «كَانَ إِسْلَامَ عُمَرَ عِزًّا، وَهَجْرَتَهُ نَصْرًا، وَإِمَارَتَهُ رَحْمَةً. وَاللَّهُ مَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نُصَلِّيَ حَوْلَ الْبَيْتِ ظَاهِرِينَ حَتَّى أَسْلَمَ عُمَرُ»^(٤).

نعم لقد كان إسلام الفاروق عمر رضي الله عنه فتحًا وعزًّا للدعوة قال ابن تيمية حول هذا المعنى: «وظهر من عز الإسلام في إمارته شرقًا وغربًا وفتح الشام والعراق ومصر وكسر عساكر كسرى وقيصر، ما تحقق به إجابة الدعاء»^(٥)

* ثالثًا: توثيق المدعويين صلتهم بالله تعالى وتعليمهم:

من أهم وظائف دار الأرقم أنها ملتقى يتيح للنبي الكريم ﷺ تعليم أصحابه رضي الله عنهم ما يقربهم إلى الله وأن يقيموا الصلاة فيها بطمأنينة ولذا كان سعيد بن زيد رضي الله عنه يقول: «استخفينا بالإسلام سنة، ما نصلي إلا في بيت مغلق - يشير إلى دار الأرقم - أو شعب خال ينظر بعضنا لبعض».

(١) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب: المناقب باب: مناقب عمر بن الخطاب رقم الحديث: ٣٦١٦ وقال الألباني: حسن صحيح في تحقيقه مشكاة المصابيح للتبريزي، ط [الثالثة، عام: ١٤٠٥ هـ، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت] ٣ / ٣١٦.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى ٣ / ٢٤٣.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: المناقب، باب: مناقب عمر بن الخطاب رقم الحديث: ٣٤٠٨.

(٤) المستدرك على الصحيحين - للحاكم، ط [الأولى، عام: ١٤١١ هـ، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت] ٣ / ٥٧٤.

(٥) انظر: الجواب الصحيح ٦ / ٣١٢.

يقول توماس أرنولد^(١): تعدُّ الفترة التي قضاها محمد ﷺ في هذه الدار فترة مهمة في الدعوة الإسلامية بمكة، حتى أن كثيراً من المسلمين يؤرخون دخولهم في الإسلام بتلك الأيام التي كان الرسول ﷺ يبيت فيها الدعوة بدار الأرقم لمن آمن به سرّاً، حيث كان يعلمهم الإسلام، ويتلو عليهم ما نزل من القرآن، ويستمع لأخبارهم، وينظر في أمر دعوتهم.

وهذا السياق إضافة إلى غيره من الأخبار يدل على أنه ﷺ استمر مستخفياً هو وأصحابه في دار الأرقم والقيام فيها بما سبق ذكره من مهام ووظائف دعوية مدة عام كامل إلى أن أمر بإظهار الدعوة حيث أعلنها في السنة الرابعة^(٢).

• المطلب الثاني: وسائل وأساليب الدعوة في مرحلة الاستخفاء:

لا ريب أن النبي ﷺ لم يكن مخاطباً إبان تلك المرحلة بأن يبلغ الدعوة جهراً للناس، ولا أن يحتسب على المنكرات الشركية وغيرها في المجتمع

(١) من كبار المستشرقين البريطانيين.. صاحب فكرة كتاب (تراث الإسلام) الذي أسهم فيه عدد من مشاهير البحث والاستشراق الغربي، وقد أشرف أرنولد على تنسيقه وإخراجه، تعلم في كمبرج وقضى عدة سنوات في الهند أستاذاً للفلسفة في كلية عليكرة الإسلامية، وهو أول من جلس على كرسي الأستاذية في قسم الدراسات العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن، ذاع صيته بكتابه: «الدعوة إلى الإسلام» الذي ترجم إلى أكثر من لغة و«الخلافة». كما أنه نشر عدة كتب عن الفن الإسلامي.

انظر: قالوا عن الإسلام - د. عماد الدين خليل، ط [الأولى، عام: ١٤١٢ هـ الناشر: الندوة العالمية للشباب الإسلامي - الرياض] ص/ ٥٠.

(٢) وقيل مدة استخفائه ﷺ أربع سنين وأعلن في الخامسة. وقيل أقاموا في تلك الدار شهراً وهم تسعة وثلاثون، وقد يقال الإقامة شهراً مخصوصة بالعدد المذكور أنفاً فلا منافاة وإعلانه ﷺ كان في الرابعة أو الخامسة بقوله تعالى: «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين» وبقوله تعالى: «وانذر عشيرتک الأقربين» انظر: السيرة الحلبية ١/ ٤٥٧.

الجاهلي، ولذا لم يستلزم الأمر اتخاذ وسائل التبليغ كالخطابة، وإرسال الدعاة، وكتابة الرسائل.. كما هو الأمر أثناء الدعوة الجهرية، بل تبلورت الدعوة في هذه المرحلة بما يتطلبه حال الخفاء والاستمرار من جهة، ومن جهة أخرى فقد أمر -عليه الصلاة والسلام- بالصبر على الأذى وبالهجر الجميل قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾^(١)، كما أمر بهجر الرجز قال تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَأَهْجُرْ﴾^(٢)؛ وهي الأصنام والأوثان^(٣).

وهذان الاتجاهان يدلان على أن استخفاء النبي ﷺ بالدعوة يقوم على ركيزة مهمة وهي أن لا يلفت الأنظار إلى الدعوة، وأن لا يوجب الخصوم ضدها، ولهذا انتهج مسلك الدعوة الفردية الذي كان الخيار الممكن له ﷺ في ظل الأوضاع والظروف التي سادت مكة آنذاك. حيث مبناها أعني الدعوة الفردية على الاتصال القوي بين الداعي والمدعو، ومما يشير إلى ذلك اتصال النبي ﷺ بأفراد من المدعويين الذين كانوا يقصدونه في دار الأرقم وقد مر ذكرهم، أو من كان يقصدهم هو ﷺ كخباب بن الأرت رضي الله عنه الذي كان قيناً يطبع السيوف ففي الخبر أن رسول الله ﷺ كان «يألفه ويأتيه..»^(٤).

ألا وأن نقل الناس من دين ومعتقد راسخ إلى غيره لهي مهمة شاقة جداً، بحاجة إلى دقة في التعامل مع النفوس، وصبر والتزام كبيرين، ولا يقوم بحققها إلا

(١) سورة: المزمل. آية: ١٠.

(٢) سورة: المدثر. آية: ٥.

(٣) تاريخ الأمم والملوك - للإمام الطبري، ط [الأولى، عام: ١٤٠٧ هـ الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت] ١/ ٥٣٩.

(٤) فأخبرت مولاة خباب بذلك، فكانت تأخذ الحديدية المحممة فتضعها على رأسه، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «اللهم انصر خباباً»، فاشتكت مولاته أم أنمار رأسها، فكانت تعوي مثل الكلاب، فقيل لها: اكتوي، فكان خباب يأخذ الحديدية المحممة فيكوي بها رأسها.

من يسر الله له وفتح عليه ووفقه لذلك، ولهذا كان النبي ﷺ يقوم بها بنفسه في تلك المرحلة قدر استطاعته من خلال وسيلتين وهما:

* أولاً: القدوة الحسنة:

حيث من الواضح لكل متأمل ما كان عليه المصطفى من خلق كريم وسيرة نبيلة حتى كان لهذا الأمر تأثيره البين في استجابة المدعوين (السابقين) إلى الإسلام أمثال خديجه وعلي وزيد رضي الله عنهم وغيرهم ممن سبق، إذ كانت معرفتهم لرسول الله ﷺ عن قرب ومعاشرتهم له واطلاعهم على كريم خلقه وعظيم شخصيته الإنسانية لها الأثر الواضح في تصديقهم فيما يدعو إليه وإيمانهم برسالته في مرحلة الاستخفاء، ولهذا لم يطالبوه بالمعجزة ولم يناقشوه بالدليل استناداً لاطمئنانهم التام بصدقه الذي لا يدع مجالاً للشك، فهم لم يعهدوا على رسول الله ﷺ كذبة واحدة طيلة معاشرتهم له، ولم يلحظوا على أخلاقه الكريمة ملحظاً ذي ريبة.

وما يؤكد ذلك أن أبا طالب قال لعلي رضي الله عنه بعد أن أجابه على سؤال عن دينه الجديد الذي دعاه إليه محمد ﷺ: «أما إنه لا يدعوك إلا إلى خير فالزمه»^(١).

* ثانياً: القول المباشر:

وقد قدم الرسول الدعوة للأفراد بوسيلة القول المباشر من خلال أسلوب النصيح، كما تجلّى في هذه الدراسة وهو أسلوبٌ أساسٌ يتفرع من مسلك الدعوة الفردية باعتبار طبيعة الاستسرار التي تجمع بينهما، وقد بين النبي ﷺ هذا الأسلوب في دعوته لعمه حينما قال له: «.. وأنت يا عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحق من أجابني إليه وأعاني عليه»^(٢).

(١) تاريخ الأمم والملوك - للإمام الطبري ١/٥٣٩.

(٢) تاريخ الأمم والملوك - للإمام الطبري ١/٥٣٩.

• المطلب الثالث: مضمون الدعوة في مرحلة الاستخفاء:

من خلال تأمل دعوة النبي ﷺ في مرحلة الاستخفاء المذكورة آنفاً يتضح أنها ارتكزت على أربعة موضوعات رئيسة وهي:

١ - التوحيد:

من المعلوم أن دعوة النبي ﷺ كان أساسها تحقيق العبودية لله سبحانه إذ هي الغاية من خلق الجن والإنس قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(١)، وتوحيد الألوهية هو المقصود الأعظم من بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام وهو أعظم معروف يدعى الناس إليه.

ولذا لما سأله عمرو بن عبسة رضي الله عنه عن مضامين دعوته بقوله: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَرْسَلَنِي بِصَلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوحَّدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ»^(٢).

ولما دعا علي رضي الله عنه كانت دعوته بقوله: «فأدعوك إلى الله وحده وإلى عبادته وكفر باللات والعزى»^(٣).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وكان المقصود بالدعوة: وصول العباد إلى ما خلقوا له من عبادة ربهم وحده لا شريك له، والعبادة أصلها عبادة القلب المستتبع للجوارح فإن القلب هو الملك والأعضاء جنوده. وهو المضغة التي

(١) سورة: الذاريات. آية رقم: ٥٦.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه. كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: إسلام عمرو بن عبسة، رقم الحديث (٨٣٢).

(٣) سيرة ابن إسحاق ١١٨/٢.

إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، هو أصل الدعوة في القرآن^(١).

٢- العبادة (الصلاة):

من أوائل ما نزل من الأحكام الشرعية الصلاة، قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: كان ﷺ قبل الإسراء يصلي قطعاً وكذلك أصحابه، ولكن اختلف: هل فرض شيء قبل الصلوات الخمس من الصلوات أم لا؟ فقيل: إن الفرض كانت ركعتين بالغداة، وركعتين بالعشي. وأفاد رَحِمَهُ اللهُ بأن جماعة من أهل العلم ذهبوا إلى أنه لم يكن قبل الإسراء صلاة مفروضة إلا ما كان وقع الأمر به من صلاة الليل من غير تحديد. ثم عقب قائلاً: «وَالَّذِي يَطَّهَّرُ لِي - وَبِهِ تَجْتَمِعُ الْأَدِلَّةُ السَّابِقَةُ - أَنَّ الصَّلَوَاتَ فُرِضَتْ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ»^(٢)

وسواء كانت الصلاة صلاة تطوع أم فريضة فقد ثبت أنه كان هو وخديجة يصليان قبل الإسراء سرّاً^(٣) وفي سيرة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه بعد إسلامه كان يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه، فأسلم على يديه عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة ابن عبيدالله، وزاد بعضهم سادساً وهو أبو عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال الطبري: «فجاء بهم إلى رسول الله حين استجابوا فأسلموا وصلوا»^(٤).

وذكر ابن إسحاق أنه كان من أسلم إذا أراد الصلاة يذهب إلى بعض الشعاب

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، ٦/٢.

(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني، ١/ ٥٥٤.

(٣) سيرة ابن إسحاق ١١٧/٢.

(٤) تاريخ الأمم والملوك - للإمام الطبري ١/ ٥٤١.

يستخفي بصلاته من المشركين^(١)، وابن هشام في السيرة أورد أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهبوا في الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم وقد رأى أبو طالب النبي ﷺ وعليّ آ يصليان مرة.

وكان سعيد بن زيد رضي الله عنه يقول: «استخفينا بالإسلام سنة، ما نصلي إلا في بيت مغلق - يشير إلى دار الأرقم - أو شعب خال ينظر بعضنا لبعض».

تلك هي العبادة التي كان المؤمنون يؤدونها إبان استسرارهم وبالتأكيد كانت هذه العبادة نتاج التوجيه النبوي لأصحابه، ولا تعرف لهم عبادات وأوامر ونواه أخرى غير ما يتعلق بالصلاة وإنما كان الوحي يبين لهم جوانب شتى من التوحيد، ويرغبهم في تزكية النفوس، ويحثهم على مكارم الأخلاق، ويصف لهم الجنة والنار كأنهما رأي عين، ويعظهم بمواعظ بليغة تشرح الصدور، وتغذي الأرواح.

٣- صلة الأرحام:

ومما يدل على أن صلة الأرحام من مضامين دعوة النبي ﷺ في تلك المرحلة ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه: «كُنْتُ - وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ - أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بَرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا جُرَاءً عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: (أَنَا نَبِيٌّ) فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: (أُرْسَلَنِي اللَّهُ)، فَقُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أُرْسَلْتَ؟ قَالَ: (أُرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوحِدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ) قُلْتُ لَهُ: فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: (حُرٌّ

(١) انظر السيرة الحلبية ١ / ٤٥٦.

وَعَبْدٌ)، قَالَ: وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ، فَقُلْتُ: إِنِّي مُتَّبِعُكَ، قَالَ: إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا، أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ؟ وَلَكِنْ أَرْجِعْ إِلَيَّ أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي..»^(١).

٤- مكارم الأخلاق:

من المعلوم أن دعوة النبي ﷺ انطلقت من كونها تدعو إلى مكارم الأخلاق ولذا فقد جاء في الحديث: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(٢)

ولما بلغ أبا ذر رضي الله عنه مبعث النبي ﷺ قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء واسمع من قوله ثم ائتني فانطلق الأخ حتى قدمه وسمع من قوله ثم رجع إلى أبي ذر رضي الله عنه فقال له: «رأيتك يأمر بمكارم الأخلاق»^(٣)

وهذه المحاور العامة التي كانت مضامين للدعوة النبوية في مرحلة الاستخفاء نلاحظ فيها شمولاً حيث تم تناول موضوعات الدعوة (عقيدة وشريعة وسلوكاً)، وهي شعب اتسع تشريعها شيئاً فشيئاً مع اتساع رقعة الإسلام وانتشاره في الآفاق.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: إسلام عمرو بن عبسة، رقم الحديث: ٨٣٢.

(٢) أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي هريرة رَفَعَهُ «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ» وَأَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ بِلَفْظِ «مَكَارِمِ» بَدَلَ «صَالِحِ» انظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني، ١/ ٣٢٩٥.

(٣) سبق تخريجه.

• المطلب الرابع: أصناف المدعويين في مرحلة الاستخفاء:

نظرًا لأن مرحلة الاستخفاء لها خاصيتها وطبيعتها فمن غير المستغرب أن يقدم الرسول ﷺ الدعوة أولاً إلى أقرب الناس إليه باعتبار أن الأقربين أولى بالمعروف، ثم تتسع دائرة المدعويين شيئاً فشيئاً.. لتشمل عدة أصناف من المدعويين ولذا فيإجاله النظر فيمن دعاهم النبي ﷺ في ذلك الطور وياشر دعوتهم بنفسه^(١) يتضح أنهم على النحو الآتي:

* أولاً: دعوة النبي ﷺ أهل بيته:

اتفق أهل الأثر وعلماء السير والأخبار على أن أول الناس إيماناً به ﷺ على الإطلاق خديجة -رضي الله تعالى عنها- كما نقله الثعلبي في تفسيره، وقال النووي: إنه الصواب عند جماعة من المحققين ذكره الحلبي^(٢).

ونقل الشيخ عز الدين ابن الأثير^(٣) الإجماع على ذلك بقوله: «خديجة أول خلق الله تعالى أسلم بإجماع المسلمين لم يتقدمها رجل ولا امرأة»^(٤).

ثم تلا خديجة رضي الله عنها بقية أهل بيته قال الحلبي في السيرة: «وفي كلام الحافظ

(١) وهذا القيد يخرج من نطاق البحث من جاء في ترجمتهم أنهم أسلموا دون تحديد من كان سبباً في إسلامهم أو من تمت دعوتهم من قبل الصحابة الكرام كأبي بكر الذي أسلم على يديه عدد من الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين.

(٢) انظر: السيرة الحلبية ١ / ٤٣٢.

(٣) هو علي بن محمد الجزري المتوفى عام ٦٣٠ هـ وهو المؤرخ صاحب الكامل.

(٤) انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة - لابن الأثير، ط [الأولى، عام: ١٤١٨ هـ، الناشر: دار

ابن كثير الظاهر أن أهل بيته ﷺ آمنوا قبل كل أحد: خديجة، وزيد، وزوجة زيد أم أيمن، وعلي - رضي الله تعالى عنهم -، فليتأمل قوله: قبل كل أحد»^(١).

أما بناته ﷺ رقية، وزينب، وأم مكلثوم، وفاطمة رضي الله عنهن أجمعين فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن.^(٢) وغالب الظن أنهن من أوائل المدعوات ولذا قال الحلبي في سيرته: «إن بناته الأربع كن موجودات عند البعثة وبعده تأخر إيمانهن»^(٣) لذا قال الإمام الذهبي في السير عند ترجمة رقية ؓ: «وأسلمت مع أمها وأخواتها ثم تزوجها عثمان»^(٤) في إشارة إلى تقدم إسلامها.

- علي بن أبي طالب ؓ:

ذكر ابن إسحاق أن علي بن أبي طالب ؓ جاء بعد إسلام خديجة بيومين فوجدهما يصليان فقال علي: ما هذا يا محمد؟ فقال النبي ﷺ: دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله فأدعوك إلى الله وحده وإلى عبادته وكفر باللات والعزى. فقال له علي: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم فلست بقاض أمراً حتى أحدث أبا طالب. فكره رسول الله ﷺ أن يفشي عليه سرّه قبل أن يستعلن أمره. فقال له يا علي: إذا لم تسلم فإتكم، فمكث علي تلك الليلة ثم إن الله أوقع في قلب علي الإسلام فأصبح غادياً إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه، فقال: ما عرضت علي يا محمد؟ فقال له رسول الله ﷺ: تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وتكفر باللات والعزى وتبرأ من الأنداد. ففعل علي وأسلم، ومكث علي يأتيه على

(١) السيرة الحلبية ١ / ٤٣٢.

(٢) انظر: تاريخ الأمم والملوك ١ / ٥٤١ وأسد الغابة في معرفة الصحابة ٤ / ١٨١٩ والسيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٩.

(٣) انظر: السيرة الحلبية ١ / ٤٣٢.

(٤) سير أعلام النبلاء ١ / ٢٥١.

خوف من أبي طالب وكنتم علي إسلامه^(١) وأسلم وهو ابن عشر سنين^(٢).

وروى ابن جرير بسنده عن يحيى بن عفيف قال: جئت زمن الجاهلية إلى مكة فنزلت على العباس بن عبد المطلب فلما طلعت الشمس وحلقت في السماء وأنا أنظر إلى الكعبة أقبل شاب فرمى ببصره إلى السماء ثم استقبل الكعبة فقام مستقبلاً فلم يلبث حتى جاء غلام فقام عن يمينه فلم يلبث حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما فركع الشاب فركع الغلام والمرأة فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة فخر الشاب ساجدا فسجدا معه.

فقلت: يا عباس، أمر عظيم! فقال أمر عظيم! فقال: أتدري من هذا؟ فقلت: لا، فقال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي. أتدري من الغلام؟ قلت: لا، قال: هذا علي بن أبي طالب. أتدري من هذه المرأة التي خلفهما؟ قلت: لا، قال: هذه خديجة بنت خويلد زوجة ابن أخي وهذا حدثني أن ربك رب السماء والأرض أمره بهذا الذي تراهم عليه وأيم الله ما أعلم على ظهر الأرض كلها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة^(٣).

- زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ وَزَوْجَتَهُ أُمَّ أَيْمَنَ:

مَوْلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَهُوَ مِنْ بَنِي كَلْبٍ أُسِرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَاشْتَرَاهُ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ لِعَمَّتِهِ خَدِيجَةَ فَاسْتَوْهَبَهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْهَا»
وَتَزَوَّجَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ: أُمَّ أَيْمَنَ، وَكَانَتْ حَاضِنَةَ النَّبِيِّ ﷺ وَرِثَهَا مِنْ أَبِيهِ
فَوَلَدَتْ لَهُ أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَعَاشَتْ أُمَّ أَيْمَنَ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ قَلِيلًا.

(١) انظر: سيرة ابن إسحاق ١١٨/٢.

(٢) انظر: سيرة ابن إسحاق ١١٨/٢ وفتح الباري لابن حجر، ١٧٤/٧.

(٣) انظر: تاريخ الأمم والملوك ٥٣٧/١.

قال الحافظ ابن كثير: الظاهر أن أهل بيته ﷺ آمنوا قبل كل أحد: خديجة، وزيد، وزوجة زيد أم أيمن، وعلي - رضي الله تعالى عنهم -^(١).

- عمه أبو طالب:

وذكر محمد بن إسحاق أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من عمه أبي طالب وجميع أعمامه وسائر قومه فيصليان الصلوات فيها فإذا أمسيا رجعا فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان فقال لرسول الله: يا بن أخي ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال: أي عم هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم - أو كما قال - بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت يا عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحق من أجابني إليه وأعانني عليه - أو كما قال - . فقال أبو طالب: يا بن أخي إني لا أستطيع أن أفارق ديني ودين آبائي وما كانوا عليه ولكن والله لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما حييت..^(٢).

* ثانيًا: دعوة النبي ﷺ صاحبه:

من المعلوم أن أبا بكر ﷺ كان صديق النبي ﷺ في الجاهلية وكان النبي ﷺ قد بذل الدعوة له في أول الأمر فعن عائشة ﷺ قالت خرج أبو بكر يريد رسول الله وكان له صديقاً في الجاهلية فلقه فقال: يا أبا القاسم فقدت من مجالس قومك واتهموك بالعيب لآبائها وأمهاتها فقال رسول الله: إني رسول الله أدعوك إلى الله فلما فرغ كلامه أسلم أبو بكر ﷺ فانطلق عنه رسول الله وما بين الأخشين أحد أكثر سرورا منه بإسلام أبي بكر^(٣).

(١) انظر: السيرة الحلبية ٤٣٦.

(٢) انظر: تاريخ الأمم والملوك - للإمام الطبري ١/٥٣٩.

(٣) انظر: حديث خيثمة بن سليمان بن حيدرة أبو الحسن الأضرابلسي، ط [الأولى، عام: ١٤٠٠ هـ =

* ثالثاً: دعوة النبي ﷺ لمن توسم فيه الخير^(١):

كما دعا رسول الهدى في مدة استخفائه من توسم فيه الخير سواء ممن عرفهم أو ممن لم يعرفهم، فأجابه من هؤلاء جَمَعُ عُرِفُوا في التاريخ الإسلامي بالسابقين الأولين ومنهم:

- عَمْرُو بْنُ عَبْسَةَ السُّلَمِيِّ:

قال عمرو بن عبسة رضي الله عنه: (لقد رأيتني وأنا رُبُع الإسلام)^(٢).

ودعوة النبي ﷺ له تتضح من خلال ما رواه أبو أمامة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ عَمْرُو ابْنُ عَبْسَةَ السُّلَمِيِّ: (كُنْتُ - وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ - أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بَرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا جَرَاءً عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: «أَنَا نَبِيٌّ» فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «أُرْسَلَنِي اللَّهُ»، فَقُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أُرْسَلْتَ؟ قَالَ: «أُرْسَلَنِي بِصَلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوحِدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ» قُلْتُ لَهُ: فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: «حُرٌّ وَعَبْدٌ»، قَالَ: وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ، فَقُلْتُ: إِنِّي مُتَّبِعُكَ، قَالَ: «إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا، أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ؟ وَلَكِنْ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي»^(٣).

الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت [ت: د. عمر عبد السلام تدمري ص/ ٢٥].

(١) من المعلوم أن هناك من الصحابة الكرام من أسلم مبكراً كسمية والمقداد وبلال، وما أثبت هنا يقتصر على من قام النبي ﷺ بدعوته مباشرة من خلال رواية تدل على ذلك.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات وأورده الحافظ ابن حجر في الإصابة ١٢٨/٧. وقال محقق سير الأعلام: إسناده حسن ٤٥٩/٢.

(٣) أخرجه مسلم كتاب: صلاة المسافرين، باب: إسلام عمرو بن عبسة، رقم الحديث: ١٣٧٤.

قال الإمام النووي: مَعْنَاهُ: «إِنِّي مُتَّبِعُكَ عَلَيَّ إِظْهَارَ الْإِسْلَامِ هُنَا، وَإِقَامَتِي مَعَكَ فَقَالَ لَهُ: لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ لِضَعْفِ شَوْكَةِ الْمُسْلِمِينَ وَتَخَافِ عَلَيْكَ مِنْ أَدْوَى كُفَّارِ قُرَيْشٍ، وَلَكِنْ قَدْ حَصَلَ أَجْرُكَ فَأَبَقَ عَلَيَّ إِسْلَامَكَ، وَارْجِعْ إِلَيَّ قَوْمَكَ وَاسْتَمِرَّ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ فِي مَوْضِعِكَ حَتَّى تَعْلَمَنِي ظَهَرْتُ فَأَتَنِي، وَفِيهِ مُعْجِزَةٌ لِلنَّبُوَّةِ وَهِيَ إِعْلَامُهُ بِأَنَّهُ سَيَظْهَرُ»^(١)

- أبو ذر الغفاري رضي الله عنه:

ساق الحافظ البيهقي بإسناده عن أبي ذر رضي الله عنه قوله: «كنت ربيع الإسلام أسلم قبلي ثلاثة نفر وأنا الرابع أتيت رسول الله فقلت: السلام عليك يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فرأيت الاستبشار في وجه رسول الله»^(٢).

وقال الإمام الذهبي عنه: «أحد السابقين الأولين، من نجباء أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وقيل كان خامس خمسة في الإسلام»^(٣).

وجاء في إسلامه ما أخرج ابن سعد بإسناده أنه كان رجلاً شجاعاً ينفرد وحده يقطع الطريق، كانه السبع، ثم إن الله قذف في قلبه الإسلام وسمع مقالة النبي وهو يومئذ يدعو متخفياً فأقبل يسأل عنه^(٤).

ودعوة النبي صلى الله عليه وآله التفصيلية له تتضح من خلال ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما

(١) شرح صحيح مسلم - للإمام النووي ١ / ١٣٧٤.

(٢) وهذا يدل على تقدم إسلامه جداً حتى اختلف فيمن كان يقال له ربيع الإسلام، فعن جبير بن نفير رضي الله عنه قال: كان أبو ذر الغفاري وعمر بن عبسة كلاهما يقول: «لقد رأيتني وأنا رُبع الإسلام مع رسول الله لم يسلم قبلي إلا النبي صلى الله عليه وآله وأبو بكر وبلال - كلاهما - حتى لا يدري متى أسلم الآخر».

أخرجه الطبري برقم ١٦١٨. وذكره الذهبي في سيره ٢ / ٤٥٧.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢ / ٤٦.

(٤) طبقات ابن سعد ٤ / ٢٢٢.

بقوله: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِإِسْلَامِ أَبِي ذَرٍّ؟ قَالَ: قُلْنَا: بَلَى قَالَ: قَالَ أَبُو ذَرٍّ كُنْتُ رَجُلًا مِنْ غِفَّارٍ فَبَلَّغْنَا أَنَّ رَجُلًا قَدْ خَرَجَ بِمَكَّةَ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَقُلْتُ لِأَخِي انْطَلِقْ إِلَيَّ هَذَا الرَّجُلُ كَلَّمَهُ وَأَتَيْتَنِي بِخَبْرِهِ فَانْطَلَقَ فَلَقِيَهُ ثُمَّ رَجَعَ فَقُلْتُ مَا عِنْدَكَ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَأْمُرُ بِالْخَيْرِ وَيَنْهَى عَنِ الشَّرِّ فَقُلْتُ لَهُ: لِمَ تَشْفِينِي مِنَ الْخَيْرِ فَأَخَذْتُ جِرَابًا وَعَصَا ثُمَّ أَقْبَلْتُ إِلَى مَكَّةَ فَجَعَلْتُ لَا أَعْرِفُهُ وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْأَلَ عَنْهُ وَأَشْرَبُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ وَأَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ قَالَ: فَمَرَّ بِي عَلَيٌّ فَقَالَ: كَأَنَّ الرَّجُلَ غَرِيبٌ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ قَالَ فَانْطَلِقْ إِلَيَّ الْمَنْزِلِ قَالَ: فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ شَيْءٍ وَلَا أُخْبِرُهُ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ عَدَوْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ لِأَسْأَلَ عَنْهُ وَلَيْسَ أَحَدٌ يُخْبِرُنِي عَنْهُ بِشَيْءٍ قَالَ فَمَرَّ بِي عَلَيٌّ فَقَالَ: أَمَا نَالَ لِلرَّجُلِ يَعْرِفُ مَنْزِلَهُ بَعْدُ قَالَ: قُلْتُ: لَا قَالَ انْطَلِقْ مَعِي قَالَ فَقَالَ مَا أَمْرُكَ وَمَا أَقْدَمَكَ هَذِهِ الْبَلَدَةَ قَالَ قُلْتُ لَهُ إِنْ كَتَمْتَ عَلَيَّ أَخْبَرْتُكَ قَالَ فَإِنِّي أَفْعَلُ قَالَ قُلْتُ لَهُ بَلَّغْنَا أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ هَا هُنَا رَجُلٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَأَرْسَلْتُ أَخِي لِيُكَلِّمَهُ فَرَجَعَ وَلَمْ يَشْفِينِي مِنَ الْخَبْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَلْقَاهُ فَقَالَ لَهُ أَمَا إِنَّكَ قَدْ رَشِدْتَ هَذَا وَجْهِي إِلَيْهِ فَاتَّبِعْنِي ادْخُلْ حَيْثُ ادْخُلُ فَإِنِّي إِنْ رَأَيْتُ أَحَدًا أَخَافُهُ عَلَيْكَ قُمْتُ إِلَى الْحَائِطِ كَأَنِّي أَصْلِحُ نَعْلِي وَامْضِ أَنْتَ فَمَضَى وَمَضَيْتُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلَ وَدَخَلْتُ مَعَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ اعْرِضْ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ فَعَرَضَهُ فَأَسْلَمْتُ مَكَانِي فَقَالَ لِي: «يَا أَبَا ذَرٍّ اكْتُمْ هَذَا الْأَمْرَ وَارْجِعْ إِلَى بَلَدِكَ فَإِذَا بَلَغَكَ ظُهُورُنَا فَأَقْبِلْ...» (١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: كتاب المناقب، باب: قصة زمزم. رقم الحديث: ٣٢٦١، ط [الأولى، عام: ١٤١٧هـ الناشر: دار السلام - الرياض]. رقم الحديث: ٣٢٦١. ومسلم كلاهما من حديث ابن عباس.

وانفرد مسلم برواية عبد الله بن الصامت وبينهما تعارض، ويرى القرطبي أن الجمع فيه تكلف شديد والقاعدة أن الأصح ما اتفق عليه البخاري ومسلم ولذا يلزم عند التعارض اعتماد رواية ابن عباس المتفق عليها.

- عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

قال ابن عمر البر في الاستيعاب: «إن إسلامه كان قديمًا في أول الإسلام»^(١).
ودعوة النبي ﷺ له تتضح من خلال قوله: «كُنْتُ أَرَعَى غَنَمًا لِعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ فَمَرَّ بِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: يَا غُلَامُ هَلْ مِنْ لَبْنٍ؟ قَالَ: قُلْتُ نَعَمْ، وَلَكِنِّي مُؤْتَمَنٌ قَالَ: فَهَلْ مِنْ شَاةٍ لَمْ يَنْزُ عَلَيْهَا الْفَحْلُ؟ فَأَتَيْتُهُ بِشَاةٍ فَمَسَحَ ضَرْعَهَا فَنَزَلَ لَبْنٌ فَحَلَبَهُ فِي إِنَاءٍ فَشَرِبَ وَسَقَى أَبَا بَكْرٍ ثُمَّ قَالَ لِلضَّرْعِ: أَقْلِصْ فَقَلِصَّ. قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُهُ بَعْدَ هَذَا فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَّمَنِي مِنْ هَذَا الْقَوْلِ قَالَ فَمَسَحَ رَأْسِي، وَقَالَ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَإِنَّكَ غُلِيمٌ مُعَلَّمٌ»^(٢).

- أم أبي بكر الصديق رضي الله عنها:

عن عائشة قالت: لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلًا ألح أبو بكر على رسول الله في الظهور فقال: يا أبا بكر إنا قليل، فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته وقام أبو بكر في الناس خطيبًا ورسول الله جالس، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين فضربوا في نواحي المسجد ووطئ أبو بكر بالأرجل وضرب ضربًا شديدًا ودنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه وجاء بنو تميم يتعادون فأجلت المشركين عن أبي بكر وحملت بنو تميم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ثم رجعت بنو تميم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لقتلن عتبة بن ربيعة فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنو تميم يكلمون أبا بكر فتكلم آخر النهار: فقال: ما فعل رسول الله؟

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ١/ ٣٠٢.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/ ٤٦٢ وابن سعد في الطبقات ٣/ ١٥٠. وحسن إسناده الألباني

انظر: صحيح السيرة النبوية ١٢٤.

فمسوا منه بألستهم وعذلوهم ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير: أنظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه فلما خلعت به ألحت عليه وجعل يقول ما فعل رسول الله فقالت: والله مالي علم بصاحبك فقال: اذهبي إليّ أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله وإن كنت تحبين أن أذهب معك إليّ ابنك قالت: نعم فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح.. قال: فما فعل رسول الله قالت: هذه أمك تسمع. قال: فلا شيء عليك منها. قالت: سالم صالح. قال: أين هو؟ قالت: في دار ابن الأرقم. قال: فإن الله عليّ أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شرباً أو آتي رسول الله فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه عليّ رسول الله قال: فأكب عليه رسول الله فقبله وأكب عليه المسلمون ورق له رسول الله رقة شديدة. فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي. وهذه أمي برة بالدها وأنت مبارك ادعها إليّ الله، وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار قال: فدعا لها رسول الله ودعاها إليّ الله فأسلمت..^(١)

- مصعب بن عمير رضي الله عنه:

ودعوة النبي ﷺ له تبدو من خلال ما ذكره الواقدي بقوله: إن مصعب بن عمير بلغه أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام في دار الأرقم؛ فدخل وأسلم وكنم إسلامه خوفاً من أمه وقومه، وكان يختلف إلى رسول الله ﷺ سرّاً، فبصر به عثمان ابن طلحة يصلي فأخبر به قومه، فأخذه فحسبوه فلم يزل محبوساً إلى أن خرج إلى أرض الحبشة في أول من هاجر إليها^(٢).

(١) انظر: البداية والنهاية ٣ / ٢٥.

(٢) انظر: الاستيعاب ١ / ٤٦٤.

- عمار بن ياسر رضي الله عنه:

قال ابن حجر: «وَكَانَ عَمَّارٌ مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ»^(١). ومما يشير إلى ذلك قوله: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا مَعَهُ إِلَّا خَمْسَةٌ أَعْبُدُ وَامْرَأَتَانِ وَأَبُو بَكْرٍ»^(٢).

- صهيب رضي الله عنه:

ذَكَرَ ابْنُ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ أَنَّ أَبَاهُ كَانَ عَامِلًا لِكِسْرِيِّ، فَسَبَّتِ الرُّومُ صُهَيْبًا لَمَّا غَزَتْ أَهْلَ فَارِسَ فَاِبْتِاعَهُ مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُدْعَانَ، وَقِيلَ بَلْ هَرَبَ مِنَ الرُّومِ إِلَى مَكَّةَ فَحَالَفَ ابْنَ جُدْعَانَ^(٣).

ودعوة النبي ﷺ لهما تتضح من خلال ما ساقه ابن سعد بإسناده أن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: لقيت صهيب بن سنان رضي الله عنه على باب دار الأرقم، ورسول الله ﷺ فيها، فقلت: ما تريد؟ فقال لي: ما تريد أنت؟ فقلت: أردت أن أدخل على محمد فأسمع كلامه. قال: وأنا أريد ذلك. قال: فدخلنا عليه فعرض علينا الإسلام فأسلمنا، ثم مكثنا يومنا على ذلك حتى أمسينا، ثم خرجنا ونحن مستخفون فكان إسلام عمار وصهيب بعد بضعة وثلاثين رجلاً^(٤).

* * *

(١) فتح الباري ٧/ ٩١.

(٢) أخرجه البخاري كتاب المناقب، باب: إسلام أبي بكر الصديق رقم الحديث: ٣٥٦٨. قال الذهبي: ولم يذكر علياً لأنه كان صغيراً ابن عشر سنين.

(٣) فتح الباري ٤/ ٤١٢.

(٤) الطبقات الكبرى ٣/ ٢٢٧. وأورد الذهبي عن صيفي بن صهيب عن أبيه أنه قال: «صحبت النبي ﷺ قبل أن يوحى إليه» انظر: سير أعلام النبلاء ٢/ ١٩.

المبحث الثالث

مفهوم الاستخفاء في دعوة النبي ﷺ وسماته

بعد أن استعرضنا بعضاً من معالم دعوة النبي ﷺ في مرحلة الاستخفاء من خلال إلقاء الضوء على ميدان الدعوة والوسائل والأساليب المناسبة التي اتخذها في تلك المرحلة، وكذلك أصناف المدعويين الذين قدم لهم الدعوة، ينساق الحديث هنا إلى تبيان أمر دقيق وهو طبيعة الاستخفاء ومفهومه في مضمار الدعوة إلى الله.

وبالنظر إلى كتابات بعض المعاصرين حول تلك المرحلة نجد أن هناك تنوعاً في تسميتها حيث أُطلق عليها بعض التسميات منها: «الاستسرار»، و«الاستخفاء»، و«الكتمان» وكلها في الحقيقة ذات مدلول واحد.. وعلى أي حال إذا تجاوزنا حدود المصطلح الذي يتفق العلماء على أنه لا مشاحة فيه إلى المعاني والحقائق التي تشتمل عليه تلك الألفاظ نجد عدة آراء في بيان طبيعة الاستخفاء، فمن مفهوم يميل لتوسيع دائرة استخفاء النبي ﷺ بالدعوة، إلى مفهوم يميل لتضييق تلك الدائرة، ومن مفهوم هو بينهما. وذلك حسب ما يعتمد عليه كل مفهوم من أحداث تؤيد ما يذهب إليه^(١). كما سيتضح في المطلبين التاليين:

(١) انظر: دراسة في السيرة - للدكتور عماد الدين خليل ص ٦٤. وانظر: السيرة الحلبية، ١ / ٣١٩.

• المطلب الأول: آراء بعض المعاصرين حول مفهوم استخفاء النبي

ﷺ بالدعوة ومناقشتها:

* الفرع الأول: آراء بعض المعاصرين حول مفهوم استخفاء النبي ﷺ

بالدعوة:

يمكن حصر اتجاهات المعاصرين المعتبرة التي تسعى إلى تفسير الاستخفاء وبيان مفهومه في ثلاث اتجاهات:

الاتجاه الأول: أن النبي ﷺ مكث في هذا الطور يدعو إلى الله سرًا من يأنس

به من الأقارب والأصحاب، ولا يجهر على الملأ بالدعوة إلى الدين الجديد.

بمعنى أن مدلول السر والاستخفاء في الدعوة الإسلامية آنذاك يشمل سرية

الدعوة نفسها، وسرية ممارسة ما أتت به من شعائر.

الاتجاه الثاني: يتمثل فيما ذكره الشيخ محمد أبو زهرة رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابه: «خاتم

النبين» الذي جاء فيه: «وقد يقول الرواة إن الاستخفاء كان نحو ثلاث سنوات،

كانوا يستخفون بها في العبادة. وقالوا: إنها كانت في دار الأرقم بن أبي الأرقم،

ولكن يجب أن نعلم أن الاستخفاء في هذه الفترة ليس الاستخفاء بالدعوة، فقد

كان النبي ﷺ يعلن ما جاء به من نذير، وما في جعبته من تبشير، ولكن الذي

يستخفي به هو إقامة العبادة التي دعا إليها رب العالمين، ولذلك كان اضطهاد

المؤمنين من الضعفاء، واضطهاد النبي ﷺ قبل أن يسلم حمزة وعمر».

بمعنى: أن مدلول الاستخفاء في الدعوة حسب هذا المفهوم هو الاستخفاء

بشعائر العبادة فقط، أي لا استخفاء في الدعوة نفسها.

الاتجاه الثالث: يتمثل فيما ذكره صاحب كتاب «الدولة الإسلامية» فقد جاء

فيه ما نصه: «كان أمر الدعوة الإسلامية ظاهرًا من أول يوم بعث به ﷺ. وكان في

مكة يعرفون أن محمدًا ﷺ يدعو لدين جديد، ويعرفون أنه أسلم معه كثيرون، ويعرفون أن محمدًا يكتل أصحابه، ويسهر عليهم، ويعرفون أن المسلمين يستخفون عن الناس في نكتلهم، وفي اعتناقهم الدين الجديد، وكانت هذه المعرفة تشعر أن الناس كانوا يحسون بالدعوة الجديدة، ويحسون بوجود مؤمنين بها، وإن كانوا لا يعرفون أين يجتمعون، ومن هم هؤلاء الذين يجتمعون من المؤمنين^(١).

أي: إن مدلول الاستخفاء في الدعوة حسب هذا المفهوم هو إخفاء المدعويين ممن استجابوا للدعوة، وإخفاء المكان والزمان اللذين يجتمع فيهما المدعويون، مع الحرص في الوقت نفسه على إظهار الدعوة إلى الدين على الملأ^(١).

* الفرع الثاني: مناقشة الآراء السابقة:

تناولت الاتجاهات المذكورة آنفاً استخفاء النبي ﷺ بالدعوة في محاولة لوضع إطار عام يتحدد من خلاله مفهوم الاستخفاء وينحصر فيه. فالاتجاه الأول الذي مفاده أن استخفاء النبي ﷺ اشتمل على سرية الدعوة وسرية ممارسة العبادة هكذا بإطلاق؛ في نظري غير صحيح، حيث إن السرية لم تكن سرية مطلقة في كافة جوانبها، بل المتأمل للدعوة يتضح أنها كانت تلوح وتخفى، وهي بعبارة أخرى سرية ذات انفتاح ومرونة، ولهذا سمح النبي ﷺ بخبر الدعوة أن يتسرب ويشتهر في مكة عن قصد في تلك المرحلة حتى نمى أمره ﷺ إلى من كان خارج مكة كعمرو بن عبسة وأبي ذر الغفاري رضي الله عنه بل طلب ممن استجاب للدعوة حينذاك أن يبلغ من وراءه وكان هذا في أوائل الدعوة مما يستلزم انتشار الخبر.. ولهذا فإن هذه الرؤية لاستخفاء النبي ﷺ بالدعوة تحتاج إلى مزيد من الإيضاح في ضوء ما ذكر.

(١) انظر: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية في صدر الإسلام وفقه الإسلام والعصر الحديث -

د. محمد خير هيكل، ط [الثانية، عام: ١٤١٧ هـ الناشر: دار البيارق - بيروت] ١ / ٣٧٩.

وأما الاتجاه الثاني الذي يقرر أن الاستسرار كان خاصًا بإقامة العبادة، وأن الدعوة لم يكن النبي ﷺ يستخفي في أمرها وأنها كانت معلنة، فهذا فيه نظر باعتبار دلالة النصوص التي تفيد العموم فعندما أمر النبي ﷺ أبا ذر بالكتمان بقوله: «يَا أَبَا ذَرٍّ اكْتُمْ هَذَا الْأَمْرَ» فذلك يعم الأمرين معًا الدعوة والعبادة، وروي عنه ﷺ أنه قال لعليّ رضي الله عنه: «يا عليّ إذا لم تسلم فاكتم» مع اتخاذه دارًا في سبيل الخفاء والتي كان من وظائفها إقامة العبادة وأيضًا الدعوة إلى الله، فقد أخرج ابن سعد في الطبقات بإسناده عن عثمان بن الأرقم أنه قال: أنا ابن سبعة في الإسلام أسلم أبي سابع سبعة وكانت داره بمكة على الصفا وهي الدار التي كان النبي ﷺ يكون فيها أول الإسلام وفيها دعا الناس إلى الإسلام وأسلم فيها قوم كثير^(١) كل ذلك لا يتسق مع القول بأن الدعوة كانت معلنة واختصاص الاستخفاء حينئذٍ بأمور العبادة فقط، وبهذا يتبين أن حصر الاستخفاء بالعبادة غير دقيق بل الاستخفاء يضم الأمرين معًا لكنه استخفاء غير مطلق كما سيتضح.

بينما تضمن الاتجاه الثالث أن الدعوة أمرها اشتهر من أول يوم البعثة وأن صيتها قد ذاع في مكة فهذا فيه نظر ولو كان كما قيل لما كان في استخفائه بالدعوة واستسارته بها عن الناس ثلاث سنين أي فائدة والنصوص التي تشير إلى مرحلة الاستخفاء والمتضمنة حرصه على كتمان الدعوة التي سبق بيانها ترد هذا الاتجاه لمن تأمل.

وبما أن الاتجاهات المشار إليها تحتاج إلى مزيد ضبط وتصويب يمكن أن نقول إن استخفاء النبي ﷺ بالدعوة الذي استمر ثلاث سنين يتبلور في أن الدعوة بادئ أمرها كان الاستتار أبلغ ما يكون، ومع استجابة المدعوين الأقرب فالأقرب أخذت الدعوة تفتح على المجتمع على نحو متدرج، مع السماح لخبرها أن

يتسرب في أرجاء مكة وأوديتها وشعابها، بل حتى إلى خارج مكة إذا ما رؤيت المصلحة، واتخذ النبي ﷺ داراً غير معلنة لإقامة العبادة والدعوة إلى الله معاً بعد أن حصلت مجابهات للمستجيبين من قبل الخصوم، والأمر على ما ذكر حتى نزل قوله الله ﷻ ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُوْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(١).

وبهذا المفهوم للاستخفاء الذي يتماشى مع النصوص والأحداث نرى أنه استخفاء له سماته العامة والخاصة التي يحسن بالبحث التطرق لها.

• المطلب الثاني: سمات الاستخفاء في دعوة النبي ﷺ:

وفي ضوء ما سبق من هذا البيان المجمل لمفهوم استخفاء النبي ﷺ يمكن عرض أبرز سمات الاستخفاء كما سيأتي:

* المحور الأول: السمات العامة:

هذا المحور يتناول سمات مرحلة الاستخفاء العامة وبيان ذلك من خلال الفرعين التاليين:

* الفرع الأول - الهدف العام من الاستخفاء:

كان الهدف العام من استخفاء النبي ﷺ بالدعوة يدور في فلك سلامة الدعوة الإسلامية وحمايتها من أن تجهض في مهدها، مع السماح بإظهار جوانب من معالم الدعوة. بل إن عموم تلك المواقف في إطار الاستخفاء تشير إلى أن الاستمرار بالدعوة هو في الحقيقة حرص على سيرها المتزن مطرداً وهادئاً، لتسلك طريقها إلى القلوب بخطى ثابتة حتى تتمكن من الإعلام عن نفسها في

(١) سورة: الحجر. آية: ٩٤.

الوقت المناسب بعد أن يؤمن بها عدد من الناس^(١) وهو ما حدث فعلاً إذ كانت الدعوة تنساب شيئاً فشيئاً إلى النفوس الطيبة التي היאها الله تعالى لهذا الأمر على نحو ما سبق بيانه.

* الفرع الثاني - التدرج في إعلان الدعوة:

إعلان الدعوة جاء متماشياً مع الأحداث متدرجاً مع المواقف وفق ما تقتضيه مصلحة الإعلان بصورة لا تلفت الأنظار إليها. قال الإمام الزهري رَحِمَهُ اللهُ: «دعا رسول الله ﷺ إلى الإسلام سرّاً وجهراً فاستجاب الله من شاء من أحداث الرجال، وضعفاء الناس، حتى كثر من آمن به، وكفار قريش غير منكرين لما يقول»^(٢). قال الإمام الماوردي رَحِمَهُ اللهُ: «ثم تتابع الناس في الإسلام ورسول الله على استساراه وإن انتشرت دعوته في قريش»^(٣).

وقال الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللهُ: «ودخل الناس واحداً واحداً في الإسلام وقريش لا تنكر ذلك»^(٤).

وقال ابن إسحاق رَحِمَهُ اللهُ: ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من النساء والرجال.. حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث به.. ولما أسلم هؤلاء النفر وظهر أمرهم بمكة أعظمت ذلك قريش وغضبت له^(٥).

(١) انظر: منهج النبي ﷺ في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة - د. محمد أمحزون، ط [الثانية، عام: ١٤٢٤هـ، الناشر: دار السلام - القاهرة]. ص / ١٤٩. والجهاد والقتال في السياسة الشرعية - د. محمد خير هيكل، ١ / ٣٨٨.

(٢) الطبقات الكبرى ١ / ١٩٩.

(٣) أعلام النبوة - لأبي الحسن الماوردي، ط [الأولى، عام: ١٩٨٧م الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت] ت: محمد المعتمد بالله البغدادي

(٤) زاد المعاد - لابن قيم الجوزية، ٢ / ٤٧.

(٥) انظر: سيرة ابن إسحاق ٢ / ٩٧.

قال ابن هشام: فأمر الله رسوله أن يصدع بما جاءه من الحق، وأن يبادي الناس بأمره وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله أمره واستتر به إلى أن أمره الله بإظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه، ثم قال الله له ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١) وقال له: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^{(٢)(٣)}. فالدعوة إذن أخذت طريقها للإعلان على نحو متدرج.

* المحور الثاني: السمات الخاصة:

وهذا المحور يتناول سمات مرحلة الاستخفاء التي تتصل بأسس الدعوة وبيان ذلك من خلال الفروع التالية:

* الفرع الأول - في جانب المدعوين:

- الاستخفاء غلب على من كان يخشى على نفسه: مما يجلي استخفاء النبي ﷺ بالدعوة فيما يتصل بالمدعوين أن غالبهم ممن يخشى على نفسه إشهار إسلامه كان له أن يخفي ذلك، وألا يعلنه وهذا يتيح له الأمن على نفسه. وأما من لم يكن يخشى على نفسه إما لعزته وقوته، وإما لوجود منعة تحميه، فإنه كان لا يبالي بأن يشهر إسلامه. فقد أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: «أَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةُ رُسُلُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعَمَارٌ وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ وَصُهَيْبٌ وَبِلَالٌ وَالْمِقْدَادُ. فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَمَنْعَهُ اللَّهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنْعَهُ اللَّهُ بِقَوْمِهِ وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ فَالْبَسُوهُمْ أَذْرَاعَ الْحَدِيدِ وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ..»^(٤). ولذا كان إخفاء المدعو عن نفسه بأنه دخل في

(١) سورة: الحجر. آية: ٩٤.

(٢) سورة: الشعراء. آية: ٢١٤.

(٣) السيرة النبوية - لابن هشام ١/ ٢٤٩.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بإسناده حسن.

الإسلام، أو إعلان ذلك إبان مرحلة الاستخفاء إنما كان يرجع إلى المدعو نفسه الذي هو عادة أدري بخاصة نفسه.

- استخفاء المدعو بالإسلام كان على غير سبيل الإلزام: لم يكن النبي ﷺ يأمر المدعو بأن يخفي أو يعلن أمر إسلامه على وجه الإلزام وهذا يتضح من قوله ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: «اكتم هذا الأمر». وقد فهم أبو ذر رضي الله عنه أن مبعث هذا الأمر هو الحذر من أن يناله مكروه من كفار قريش إذا علموا بإسلامه، وهو الغريب عن مكة، وليس له فيها من يحميه بدليل ما جاء في الرواية الثانية التي أوردها البخاري أيضًا لهذه القصة، فقد جاء ما نصه فيها: «ارجع إلى قومك، فأخبرهم، حتى يأتيك أمري»^(١).

فالإخبار هنا صدر بصيغة الأمر، وهو يشمل إخبار قومه «قبيلة غفار» بأمر الدعوة، وبأمر إسلامه.. ومن هنا كان فهم أبي ذر أن الأمر بكتمان إسلامه في مكة إنما هو لمجرد الشفقة عليه، وليس أمر إلزام، ولذا لم يجد حرجًا أن يعلن للرسول ﷺ عن عزمه على إظهار إسلامه على الملأ من قريش، قال ابن حجر: «وَكَاثَهُ فَهَمَّ أَنْ أَمَرَ النَّبِيَّ ﷺ لَهُ بِالْكِتْمَانِ لَيْسَ عَلَيَّ الْإِجَابَ بَلْ عَلَيَّ سَبِيلَ الشَّفَقَةِ عَلَيْهِ، فَأَعْلَمَهُ أَنَّ بِهِ قُوَّةَ عَلَيَّ ذَلِكَ، وَلِهَذَا أَقَرَّهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيَّ ذَلِكَ»^(٢). فعمد أبو ذر رضي الله عنه إلى المكان الذي تنتصب فيه آلهة قريش، وقريش تحت أقدام تلك الآلهة المزعومة، ورفع كلمة التوحيد^(٣).

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، رقم الحديث: ٣٨٦١.

(٢) فتح الباري ٧/ ١٧٤.

(٣) حيث قال: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَصْرُخَنَّ بِهَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ فَبَجَاءَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَقُرَيْشٌ فِيهِ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَقَالُوا: قُومُوا إِلَيَّ هَذَا الصَّابِي فَقَامُوا فَضْرِبْتُ لَأَمُوتَ فَأَذْرَكَنِي الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيَّ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: وَيْلَكُمْ تَقْتُلُونَ رَجُلًا مِنْ غِفَارٍ وَمَنْجَرِكُمْ وَمَمْرُكُمُ عَلَى غِفَارٍ فَأَقْلَعُوا عَنِّي فَلَمَّا أَنْ أَصْبَحْتُ الْغَدَ رَجَعْتُ فَقُلْتُ

- أما في جانب العبادة التي يقوم بها المدعو في هذه المرحلة: فلا ريب أنها كانت تحت طائلة عقوبة قريش إن كانت على جهة الإعلان والتحدي لعقيدة الشرك السائدة في مكة، ولهذا كانت غالباً ما تؤدي في السر كما تقدم.

ومما يتصل بهذا الجانب أن الدعوة إلى الله في طورها السري كانت تسير ببطء وتؤده إذ رأينا أن الذين تمت دعوتهم هم عدد قليل جداً مقارنة بالمدة الزمنية للمرحلة التي استمرت قرابة ثلاث سنوات، رغبة في التركيز والاختيار البصير للمدعويين الذين يكونون أكثر قدرة على تحمل مسؤولية الإيمان وهو فعلاً ما تحقق فيما بعد، فقد كان كل واحد من المدعويين لديه قدرة على تحمل الضغوط الوثنية القاسية التي تفتن المرء عن دينه إلا أن يشاء الله^(١).

- الدعوة اتسمت بالشمول فيما يتعلق بالمدعويين: رسالة النبي ﷺ منذ انطلاقتها في هذه المرحلة إلى ختامها اتسمت بخاصية الشمول فمع أنه كان ﷺ يدعو أقربائه اللصيقين به ومن كان يأنس فيه الاستعداد لقبول هذه الدعوة من غير الأقارب على ضوء ما سبق إلا أن ذلك لم يخص فئة دون أخرى بل شمل الجميع، كما يتضح من التصنيف الآتي للمستجيبين وهم:

- الضعفاء: كان من المدعويين صهيب الرومي وبلال الحبشي رضي الله عنهما، وهما من أوائل من دخل في الدين الذي لا يفرق بين عربي وأعجمي ولا لفضل فيه

مِثْلَ مَا قُلْتُ بِالْأُمْسِيِّ فَقَالُوا: قُومُوا إِلَى هَذَا الصَّابِيِّ فَصْنَعِ بِي مِثْلَ مَا صُنِعَ بِالْأُمْسِيِّ وَأَذْرَكْنِي الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيَّ وَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ بِالْأُمْسِيِّ.

أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: كتاب المناقب باب: قصة زمزم. رقم الحديث: ٣٢٦١، ط [الأولى، عام: ١٤١٧ هـ الناشر: دار السلام - الرياض]. رقم الحديث: ٣٢٦١.

(١) انظر: مجلة الوعي الإسلامي مقال بعنوان: تحليل الدعوة في عصرها المكي - د. عماد الدين

خليل عدد: ١٠٠ عام ١٣٩٣ هـ الكويت ص/ ٦٨.

لأحد إلا بالتقوى، وهذا يدل على أن دعوة النبي ﷺ تتسم بخاصية الشمول حتى وهي في طور الاستسرار.

- الأقوياء: كما أن دعوة النبي ﷺ في هذه المرحلة شملت الأغنياء والأقوياء والأشراف كأبي طالب من وجهاء قريش الذي لم يسلم وأبي بكر صديقه وصديقه العزيز في قومه مالا ونسبا وعلما ومن استجاب له فوراً وهذا لا ينفي وجود الضعفاء أو الأرقاء في الصف الأول، ولكن الذي نفيه أن يكونوا هم الغالبية كما يقرره كثير من الكتاب، لأن هذا مخالف للحقائق الثابتة، ولو كانوا كذلك لكانت الدعوة في تلك المرحلة طبقية يقوم فيها الضعفاء والأرقاء ضد الأقوياء وأصحاب النفوذ وهذا لم يحدث. وإنما انتشر أمرهم أعني الضعفاء لأن تعذيبهم كان على الملاء ومن قبل الجميع، بينما امتنع الأقوياء بأقوامهم فمنهم من عذب ضمن قبيلته، ومنهم من كان مفتوناً في أهله فحسب إكراماً له، ولهذا انتشر خبر إسلامهم وخفي خبر إسلام الأقوياء في بادئ الأمر. وإنه لمن القوة للدعوة أن يكون غالبية أتباعها في مرحلة الاستخفاء بالذات من كرام القوم الذين آثروا في سبيل عقيدتهم أن يتحملوا أصنافاً من الهوان والعذاب ما سبق لهم أن عانوا مثلها.

ولا ريب أن سَبَقَ بعض الأرقاء والضعفاء إلى اعتناق الإسلام منذ الأيام الأولى هو دليل على شمولية الدعوة في مرحلة الاستسرار، ولو كانت ثمة إحصاءات لسكان أهل مكة يومئذ لوجدنا أن نسبة المدعوين الضعفاء الذين أسلموا إلى الضعفاء الذين لم يسلموا ليست بأكثر من نسبة الأشراف الذين أسلموا إلى غيرهم ممن لم يسلم فرضي الله عن الجميع^(١).

(١) انظر للتوسع: أضواء على دراسة السيرة - صالح أحمد الشامي ص/ ٧٩. والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية - د. مهدي رزق الله ط [الثانية، عام: ١٤٢٤هـ، الناشر: دار إمام الدعوة - الرياض] ص/ ١٧٨.

- الدعوة اتسمت بالعالمية فيما يتعلق بالمدعوين: كما أن رسالة النبي ﷺ منذ انطلاقتها في هذه المرحلة إلى ختامها اتسمت أيضًا بخاصية العالمية على قدر الوسع ففي مكة كانت الدعوة تسير بتؤدة وبخطى واثقة، كما كان يتطلع ﷺ في تلك المرحلة إلى نشر الدعوة في خارج مكة وبدا هذا واضحًا في قصة إسلام أبي ذر بقوله: «ارجع إلى قومك، فأخبرهم، حتى يأتيك أمري». ومما يشير إلى ذلك أيضًا أن دعوة النبي ﷺ في مرحلة الاستخفاء لم تأخذ النمط القبلي والعشائري مع أن المجتمع المكي - شأن سائر الجزيرة العربية - يعتمد في تنظيمه على القبيلة التي تغرس في نفوس أبنائها مبدأ التناصر والتآزر^(١).

وهذا الانفتاح المتوازن الذي أشرت إليه بالعالمية يدل عليه بصورة واضحة التطبيق العملي فالنبي ﷺ دعا أبا بكر وهو من تيم، وعلي بن أبي طالب من بني هاشم، ومصعب بن عمير من بني عبدالدار، وعبد الله بن مسعود من هذيل، وعمار بن ياسر من عنس، وزيد بن حارثة من كلب، وأبا ذر من غفار، وعمرو بن عبسة من سليم، ﷺ لقد كانت العالمية واضحة حتى في مرحلة الاستخفاء تلك^(٢).

- المدعو من مهامه القيام بالدعوة: إن استخفاء النبي ﷺ بالدعوة لم يمنع المدعوين من القيام بدعوة غيرهم رغم سرية المرحلة؛ لأن الغاية هي إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ولأجل هذه الغاية قام أبو بكر بعد استجابته بدعوة معارفه إلى الإسلام، وكان رجالًا مألوفًا محبوبًا سهلًا ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه؛ لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو من يثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم بدعوته عدد من الرعييل الأول وطليعة الإسلام خمسة من العشرة المبشرين بالجنة وهم: عثمان بن عفان، وطلحة بن

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة - أكرم ضياء العمري ١/١٣٣.

(٢) انظر: المرجع السابق ١/١٣٣.

عبيدالله، والزيير بن العوام، وسعد ابن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف، وزاد بعضهم سادسا وهو أبو عبيدة بن الجراح.^(١)

* الفرع الثاني - في جانب ميدان الدعوة:

ومن السمات الخاصة لمرحلة الاستخفاء التي تتصل بأسس الدعوة ما ينم عنه ميدان الدعوة (دار الأرقم) الذي اتخذه ﷺ حينما تعرض عدد ممن استجابوا له للأذى، حيث بقي هذا الميدان الدعوي في الخفاء طيلة تلك المرحلة، ومما يدل على ذلك ثلاثة مواقف:

الأول: موقف علي مع أبي ذر رضي الله عنه حين أراد أخذه إلى دار الأرقم لمقابلة النبي ﷺ والمتضمن إخباره بعدد من الاحتياطات التي توحى بسرية المكان آنذاك وهو ما يشير إليه قوله: «هَذَا وَجْهِي إِلَيْهِ فَاتَّبِعْنِي إِذْخُلْ حَيْثُ أَدْخُلُ، فَإِنِّي إِن رَأَيْتُ أَحَدًا أَخَافُهُ عَلَيْكَ فَمُنْتُ إِلَى الْحَائِطِ كَأَنِّي أُصْلِحُ نَعْلِي، وَامْضِ...»^(٢)

وسياق هذه القصة كاملة في صحيح البخاري يوحى بجو الاستخفاء الذي كانت تعيشه الدعوة آنذاك، وتتجلى فيه سرية المقر الذي كان يقيم فيه الرسول ﷺ حيث يلتقي فيه بأصحابه، وبمن يريد مقابلته لبيان الدعوة الإسلامية التي يدعو إليها.

الثاني: موقف أم جميل مع أبي بكر رضي الله عنه: عندما أخذت أم جميل وأم الخير أبا بكر إلى دار الأرقم بعد أن آذاه المشركون، فقد جاء في الرواية: «فأمهلتنا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به، يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله»^(٣).

(١) انظر: السيرة الحلبية ١/ ٤٤٩.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) البداية والنهاية - للحافظ ابن كثير ٣/ ٣٠.

الثالث: موقف إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث ورد في سياق القصة أنه جاء إلى بيت أخته فاطمة، وزوجها سعيد بن زيد ففوجئ بأن هذا البيت هو مكان من الأمكنة التي تعقد فيها حلقات تعليم الدين التي كان يقوم عليها خباب بن الأرت رضي الله عنه. ثم لما وقع في قلبه الإسلام قال لخباب: «دلني يا خباب على محمد حتى آتيه، فأسلم، فقال خباب: هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه». مع أنه كان متوشحاً سيفه يريد الفتك برسول الله ﷺ، دون أن يدري أين المكان الذي اتخذته عليه الصلاة والسلام مقرّاً للدعوة^(١).

واتخاذ النبي ﷺ دار الأرقم تحديداً ميداناً للدعوة لأنه أبلغ في الاستخفاء وذلك يتضح من خلال الجانبين التاليين:

الجانب الأول: ما يتعلق بصاحب الدار:

وهو الأرقم بن أبي الرقم بن الأسد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم رضي الله عنه وأبرزها ثلاثة أمور:

١- من المعلوم أن الأرقم رضي الله عنه لم يكن معروفاً بإسلامه بادئ الأمر، فما كان يخطر ببال قريش أن يتم لقاء محمد وأصحابه في داره.

٢- أن الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه كان فتىً عند إسلامه في حدود السادسة عشرة من عمره، ولهذا فإن الأذهان تنصرف عادة إلى منازل كبار أصحابه، أو بيته هو نفسه - عليه الصلاة والسلام -.

٣- قبيلة الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه هم بنو مخزوم، وقبيلة بني مخزوم هي التي تحمل لواء التنافس والحرب ضد بني هاشم التي ينتسب إليها النبي ﷺ، لذا

(١) انظر: البداية والنهاية - للحافظ ابن كثير، ٣/ ٨٠ والجهد والقتال في الإسلام - د. محمد خير

يستبعد أن يختفي الهاشمي في قلب صفوف العدو^(١)

الجانب الثاني: ما يتعلق بمكان الدار:

١- كانت دار الأرقم تقع على جبل الصفا بمكة^(٢) وهي منطقة تكتظ بالمارة، وتشتد فيها الحركة بصورة طبيعة مما يصعب معه إدراك وجود حركة خاصة بأناس تجتمع في هذه الدار وتنفض منها.

٢- أن عملية الوصول إليها رغم سريتها لا يحتاج إلى كلفة أو مشقة^(٣).

* الفرع الثالث - في جانب وسائل الدعوة وأساليبها:

من المعلوم أن الاستخفاء بالدعوة يتطلب اتخاذ وسائل وأساليب تتلاءم مع مقتضيات هذا الظرف، لذا كانت الوسائل التي اتخذها النبي ﷺ محدودة جداً، حيث اقتصر على وسيلتي القدوة الحسنة، والقول المباشر من خلال مسلك الدعوة الفردية.

لذا يمكن القول أن الوسائل والأساليب في تلك المرحلة لم تكن أموراً ذات صبغة خاصة أو لها ما يميزها عن وسائل الدعوة وأساليبها في المرحلة الجهرية اللهم إلا من حيث الاقتصار على ما يناسب الاستسار والاستخفاء، ولهذا لما انطلقت الدعوة إلى الجهرية اتسعت وسائلها تبعاً لذلك.

(١) انظر: الرحيق المختوم للمبارك فوري، ط [اب.ذ، عام ١٣٩٦ هـ دار المؤيد - الرياض] ص ٩٢.

ومنهج النبي في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة - د. محمد أمحزون، ص ١٤٤.
أما مدة الاستخفاء فيعلن أحد الباحثين في السيرة النبوية عن ذلك بقوله: «.. وليس في كتب الأخبار، والسير، والتواريخ، تاريخ منضبط للوقت الذي استخفى فيه الرسول والمسلمون في دار الأرقم. فالروايات في ذلك مضطربة» دراسة في السيرة للدكتور عماد الدين خليل ص ٦٤. وانظر السيرة الحلبية، ١ / ٣١٩.

(٢) الطبقات ٣ / ٢٤٣.

(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية - د. مهدي رزق الله ص / ١٧٨.

* الفرع الرابع - في جانب مضمون الدعوة:

بالنظر إلى مضامين الدعوة في حال الاستخفاء نجد أنها ارتكزت في الأصل على موضوع التوحيد، لقد كان القرآن الكريم ينزل مؤكداً على ذلك، ولم يتجاوزهُ إلى المسائل الأخرى إلا قليلاً وراح القرآن يحبك بأسلوبه المعجز وآياته البينات جوانبها الشاملة وبنائها في نفوس المدعويين الذين استجابوا للدعوة، ويحيلهم واحداً بعد آخر ويوماً بعد يوم إلى شخص حية تتحرك بما أنزل من قرآن فتكون حركتها تعبيراً حيويًا عن التصور الجديد للعقيدة والذي جاء لينعكس بالضرورة على السلوك اليومي للمسلم^(١).

وبالطبع فالدعوة كانت تتضمن إلى جانب العقيدة موضوع العبادة (الصلاة) وتناولت صلة الأرحام، ومكارم الأخلاق ولم يكن ثمة أمر آخر يستدعي لفت النظر إليه في تلك المرحلة.

لذا يتأكد القول بأن مضمون الدعوة وجوهرها لم يتغير في مراحل الدعوة الأخيرة عن مراحلها الأولى، وكذلك حقائقها ومبادئها لم تتبدل مع تطور الدعوة وتغير أطباقها طبقاً عن طبق من حيث بناء العقيدة وترسيخها في أنفس المدعويين، بل مع ثبات ذلك كانت آخذة في استيعاب مناحي الحياة وما يتنزل من تشريع جديد.

واستناداً لما تقدم يمكن أن نقول: إن سمات استخفاء النبي ﷺ بالدعوة تبلورت في أمور:

أ- السماح لخبر الدعوة والداعية ﷺ أن يتسربا بهدوء وبصورة متدرجة إلى أحياء مكة وشعابها وما جاورها من قرى إذا تحققت المصلحة وانتفت المفسدة

(١) انظر: مجلة الوعي الإسلامي مقال بعنوان: تحليل الدعوة في عصرها المكي - د. عماد الدين

مع أخذ الحذر والترقب، لذا في قصة إسلام أبي ذر وهو من غفار قال: فَبَلَّغْنَا أَنَّ رَجُلًا قَدْ خَرَجَ بِمَكَّةَ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ بَلِ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ أبا ذر بنشر خبره في غفار قوله: «ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ فَأَخْبِرْهُمْ حَتَّى يَأْتِيكَ أَمْرِي» فِي رِوَايَةِ أَبِي قُتَيْبَةَ: «أُكْتُمُ هَذَا الْأَمْرَ، وَارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ فَأَخْبِرْهُمْ، فَإِذَا بَلَغَكَ ظُهُورُنَا فَأَقْبِلْ» وَفِي رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ: «إِنَّهُ قَدْ وُجِّهَتْ لِي أَرْضُ ذَاتِ نَخْلٍ، فَهَلْ أَنْتَ مُبَلِّغٌ عَنِّي قَوْمَكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَنْفَعَهُمْ بِكَ»^(١).

ب- أن الدعوة في مرحلة الاستخفاء لم تصادم ولم تتواجه مع الخصوم ولم تجلب لها أعداء، كل ذلك مراعاة لسلامة الدعوة لئلا تؤاد في مهدها.

ت- الأصل في الدعوة أنها تتسم في حال الاستخفاء بالشمول والعالمية، وقد يكون هناك تركيز واختيار مبني على بصيرة لأفراد يعتقد بأن الدعوة ستقوى وتنتفع بهم كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما أفضل الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم.

ث- أن المدعويين مطالبون من غير إلزام بإخفاء أمر استجابتهم إلى حين يكون فيه الإعلان يجلب للدعوة مصالح ومنافع.

ج- شعائر الدين الظاهرة كانت تتم في الخفاء لأمرين أولهما: كي لا يتعرف الخصوم على مدى الاستجابة التي تحققت للدعوة ومن ثم تشعرهم بالتوسع المطرد للدعوة. ثانيهما: تفاديًا لكل ما يستفز خصوم الدعوة أو يثيرهم بظهور معالم الدعوة، في حين أن الدعوة تتوخى السلم وتحذر المواجهة.

ح- مقر الدعوة الذي يكون موثلاً للدعوة وملاذاً لأتباعها غير معلن للمصلحة العامة إلا لمن يريد التعرف على الدين الجديد بعد التحقق من سلامة مقصده، لذا كان كثير من المدعويين لا يعرفون مقر الدعوة أنها دار الأرقم إلا من خلال

(١) تقدم تخريجه.

الاستدلال، وقد تم اتخاذ هذه الدار تحديداً لكونها أليق بالاستخفاء كما تقدم.

خ- راعى النبي ﷺ بالنظر إلى واقع حال الدعوة أن ما يتاح له في ظل الاستخفاء هو مسلك الدعوة الفردية واتخذ لذلك وسيلة القدوة الحسنة، والقول المباشر فقط، ولم تعدد أساليب القول عن أسلوب النصح الذي ينسجم مع طبيعة الاستسارار.

تلك هي أبرز سمات استخفاء النبي ﷺ بالدعوة، وفي ضوء ذلك، وبعد توفيق الله تجاوزت الدعوة تلك المرحلة من خلال الغرس والتأسيس والإعداد حتى تهيأت لمرحلة الدعوة الجهرية التي جاءت امتثالاً لأمر الله بالصدع قال ابن هشام: فأمر الله رسوله أن يصدع بما جاءه من الحق، وأن يبادي الناس بأمره وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله أمره واستتر به إلى أن أمره الله بإظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه، ثم قال الله له ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١) وقال له: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٢)^(٣).

* * *

(١) سورة: الحجر. آية: ٩٤.

(٢) سورة: الشعراء. آية: ٢١٤.

(٣) السيرة النبوية - لابن هشام ١/٢٤٩ - ٢٦١.

المبحث الرابع

تطبيقات الاستخفاء بالدعوة في العصر الحاضر

الأصل في الدعوة إلى الله؛ الإعلان والبيان والإظهار والإشهار، في مختلف العصور وفي كل الأقطار. أما الاستخفاء بالدعوة فذلك عارض وأمر استثناء، فما أن استجاب لهذه الدعوة نفر من الصحابة الأجلاء؛ إلا وخرجت الدعوة من طورها السري إلى طورها الجهري قال تعالى: ﴿فَأَصْدَعِ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١).

بيد أنه من المهم معرفة مدى شرعية الاستخفاء بالدعوة في هذا العصر إذا لزم الأمر واقتضته الظروف. ولأجل تصور ذلك على وجه سليم لا بد من تصنيف المجتمعات من حيث إتاحتها للدعوة من عدمه إلى (مجتمعات دعوية) و(مجتمعات غير دعوية)، وأعني بالمجتمعات الدعوية تلك التي يسمح نظامها بالدعوة إلى الله تعالى ونشر الدين والخير بين الناس. وأما المجتمعات غير الدعوية فأعني بها تلك التي تقمع الدعوة وتحجبها عن الناس وتذيق دعائها أصناف الأذى والعذاب سعيًا لإبادتهم وما يحملون من رسالة، وهذا التأسيس مهم لننتقل منه إلى معرفة مدى شرعية تطبيقات الاستخفاء بالدعوة - موضوع الدراسة - في العصر الحاضر.

(١) سورة: الحجر. آية: ٩٤.

• المطلب الأول: الاستخفاء بالدعوة في المجتمعات الدعوية:

يمكن إيضاح ما يتعلق بالاستخفاء بالدعوة في المجتمعات الدعوية من خلال الفروع الآتية:

* الفرع الأول - الاستخفاء بالدعوة داخل (المجتمعات الدعوية) ابتداءً في سبيل الدعوة:

إن المجتمع الذي يسمح بالدعوة بين أفراده لتسديد الخلل وتقويم المعوج من خلال الدعوة العامة المعلنة وفق تعاليم الكتاب والسنة - وهذا حال غالب بلاد الإسلام - يجعل أمر الاستخفاء بالدعوة بين مجموعة من الناس والاستمرار بها عن ولاة الأمر أو علماء المسلمين أو عموم المجتمع؛ غير جائز ولا مقبول شرعاً ولا عقلاً، ولا يقول ذلك إلا من يعتمد على القول بالزامية «المرحلة السرية» لكل دعوة وحركة إصلاح استناداً إلى الأمر بالتأسي بالنبي ﷺ واعتبار ذلك أساس كل دعوة، وهذا فهم غير صحيح وهو من البطلان ما لا يحتاج معه إلى إبطال؛ لكنني أقول إنه مع تسليمنا الكامل بأن رسول الله هو القدوة والأسوة مطلقاً إلا أن استخفاء النبي ﷺ بالدعوة كان تفاعلاً مع واقع كان قائماً، وقوانين كانت مسيطرة وبيئة كانت لها قيمها وعاداتها وتقاليدها، وسنن اجتماعية وسياسية خاصة، فأبي عاقل يقول إنه مهما تغيرت الظروف والأوضاع يبقى موضوع الاستخفاء بالدعوة ملزماً بينما حين يسمح للدعوة بأن تنطلق وتشق طريقها لا يبقى أي مسوغ للسرية، لأنها في الحقيقة هي وسيلة وليست غاية^(١)، ولهذا فإن الاستخفاء بالدعوة كيفما تبلور

(١) انظر: عشرات وسقطات - زهير سالم، ط [الأولى، عام: ١٤٠٨ هـ الناشر: دار عمار - الأردن] ص/

والحال ما ذكر من حيث إتاحة الدعوة في المجتمع إنما هو انحراف في المنهج الدعوي وخلل في المسلك الإصلاحي باعتباره مخالفة صريحة لمنهجه ﷺ العام في الدعوة ولوصيته الخاصة أثناء مرحلة الدعوة الجهرية التي رواها عبدالله بن عمر رضي الله عنهما حيث قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أوصني. قال: «اعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وأقم الصلاة، وآت الزكاة، وصم رمضان، وحج البيت واعتمر، واسمع وأطع، وعليك بالعلانية وإياك والسر»^(١).

ف قوله ﷺ: «وعليك بالعلانية وإياك والسر» بعد أمره بالسمع والطاعة لولاية الأمر دليل على أن الاستخفاء بالدعوة في المجتمع المسلم، لا سيما إذا كانت منظوية على ما يخالف ولي الأمر أو متضمنة التآليب عليه؛ منهي عنها وإذا كان من يذهب إلى أن الاجتماعات السرية في هذا الزمن إلى أنه عمل صحيح، احتجاجاً بأن النبي ﷺ بدأ بالدعوة في مكة سرّاً وهذا الاحتجاج مبني على أن المجتمع الذي نعيش فيه مجتمع جاهلي فهذا تعسف ومذهب فاسد، جميع علماء المسلمين على إنكاره، إذ لا يُسَلَّم العقلاء فضلاً عن العلماء أن مجتمعنا مجتمع جاهلي كالجاهلية الأولى، بل نحن بحمد الله في بلاد الإسلام؛ الأذان معلن، والصلاة مقامة، والشعائر ظاهرة، والدعوة متاحة، فأين نحن من الجاهليين الأوائل ومن كفار العرب وغيرهم؟^(٢)

فالذي يتوجب إذن هو «الدعوة الجهرية» وقد أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ

(١) أخرجه ابن أبي عاصم عن ابن عمر في كتاب السنة رقم الحديث: ١٠٧٠، وحسن إسناده الألباني في ظلال الجنة في تخريج أحاديث السنة، ط [الثالثة، عام: ١٤١٣ هـ الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت] ٢/ ٢٥٥.

(٢) انظر: الأمر بلزوم جماعة المسلمين وإمامهم - د. عبد السلام بن برجس، ط [الأولى، عام: ١٤١٨ هـ، الناشر: دار الوطن - الرياض].

بالدعوة في قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١).

بل يمتد هذا الفهم للحديث الشريف السابق إلى موضوع أدق من الدعوة سرًا وخفاء إلى كل ما يتناوله الاستخفاء ويشمله من موضوعات لها تعلق بأمر المسلمين العام للتواصي عليه دون العلماء وولاية الأمر فعن زيد بن أسلم العدوي عن أبيه رضي الله عنه قال: «بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن ناسًا يجتمعون في بيت فاطمة، فأتاها، فقال: يا بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان أحد من الناس أحب إلينا من أبيك، ولا بعد أبيك أحب إلينا منك، ولقد بلغني أن هؤلاء نفر يجتمعون عندك، وأيم الله! لأن بلغني ذلك لأحرقن عليهم البيت. فلما جاؤوا فاطمة؛ قالت: إن ابن الخطاب قال كذا وكذا، فإنه فاعل ذلك، فتفرقوا حين بويح لأبي بكر رضي الله عنه»^(٢).

ولقد كان هذا المسلك من سمات أهل الزيغ والأهواء في زمن مضى فقد روى الأوزاعي رحمته الله قال: قال عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه: «إذا رأيت قومًا يتناجون في دينهم بشيء دون العامة؛ فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة»^(٣).

وإذا تقرر ذلك فلا يشوش عليه حصول أذى في سبيل الدعوة للدعاة من قبل المكابرين في (المجتمعات الدعوية) لأن هذا وارد وواقع في بعض الأمصار والابتلاء سنة ماضية إلى قيام الساعة لكن طريقة هذا الدين هي الدفع بالتي هي

(١) سورة: الحجر. آية: ٩٤.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في المذكر والتذكير، ط [الأولى، عام: ١٤١٣ هـ الناشر: دار المنار - الرياض] ت: قاسم الراددي ٩١/١.

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، ط [الرابعة، عام: ١٤٠٥ هـ الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت] ٣٣٨/٥. واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة، ط [الأولى، عام: ١٤٠٢ هـ الناشر: دار طيبة - الرياض] ت: د. أحمد سعد حمدان ١٣٥/١.

أحسن قال تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١) والصبر الجميل على الكيد والأذى قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾^(٢).

وما ذكر - أعني: القول بالمنع من الاستخفاء بالدعوة - يسري إلى كثير بل إلى غالب البلاد غير الإسلامية أيضًا باعتبارها (مجتمعات دعوية) ولهذا ينبغي للدعاة الاستفادة من مساحة الحرية المسموح به في أي دولة من دول العالم، من خلال القنوات الرسمية التي يسمح بها نظامها كالجمعيات، والمراكز، والاتحادات، تلك المؤسسات ينبغي للدعاة والمسلمين المبادرة إليها، واتخاذها مشاعل للهداية والدعوة، وطريقاً لنشر دينهم وتمكين عقيدتهم^(٣)

* الفرع الثاني - الاستخفاء بالدعوة داخل (المجتمعات الدعوية) إضرار بالدعوة:

إن من نظر بعين الإنصاف للدعوات التي كان لها طابع السرية داخل المجتمعات الدعوية سواء في عدد من البلاد الإسلامية أم في غيرها؛ يقف على نتيجة حتمية مفادها أن السرية بالدعوة سبب في إيقاع الضرر بالدعوة، وذلك من خلال أمرين:

أ- الإضرار بالدعوة نفسها: وأساس ذلك أن الاستخفاء يتسبب في انحراف فكر أتباعها تدريجياً ومن ثم سلوكهم وفق رد مسلك النظام القائم، وهذا التحول في الدعوة يأتي في النهاية نتيجة لأنها سارت في أنفاق مظلمة ردتاً من الزمن ومنعزلة حالت دون أداء وظيفة التصويب والتسديد التي تناط بالعلماء الراسخين والربانيين.

(١) سورة: فصلت. جزء من آية رقم: ٣٤.

(٢) سورة: المزمل. آية: ١٠.

(٣) انظر: المسلمون والعمل السياسي - عبد الرحمن عبد الخالق، ٤٣.

والمتتبع للتاريخ الغابر - فضلاً عن العصر الحاضر - يمكن أن يقول إنه متى وجد الغموض في الدعوة حلت المخالفات الشرعية، وحيث وجد التخفي؛ حل الخوف وذهب الأمن، وبذلك يتكرر خرق السفينة من المستهين فيها أنفسهم لعدم رؤيتهم والأخذ على أيديهم، ثم تنتهي إلى الغرق. فيكون أول ضحايا الدعوة تلك هو؛ العمل الدعوي نفسه وليس الخصوم^(١).

ومن المعلوم أن الإسلام بجلائه وصفائه ونقائه، فوق هذا كله، لا مجال فيه لإخفاء حقيقة، ولا كتم طريقة، ولا غموض مسلك.

ب- تعطيل عملية البلاغ: إن النزول إلى المخابئ وتغيب الدعوة والقنوات الحسنة عن الأنظار، يعطل عملية البلاغ، ويوقف شعيرة الدعوة والحسبة المناطة بالدعاة والمحتسبين؛ وهذا يؤذن بظهور الشر والفساد.

ولهذا فإن وظيفة الدعوة تقتضي ألا يحتكر الدعاة دعوتهم في نطاق محدود فتكون بعيدة عن جماهير الأمة ومنفصلة عن جسمها وهدفها وإنما الدعوة يجب أن تنطلق في المجتمع بانطلاق دعائها في ميادين الدعوة المتنوعة وأن تكون دعوتهم التي يمثلونها نموذجاً عملياً للحياة الإسلامية، وتمثل الإسلام بصورة واقعية لتجذب بسلوكها الجاهلين بحقيقة هذا الدين وتكون لهم دليلاً ومرشداً ومعيناً على دعوتهم إلى الخير كما قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢) (٣).

(١) انظر: نظرات في مسيرة العمل الإسلامي - عمر عبيد حسنة، ط [الثانية، عام: ١٤٠٥ هـ الناشر:

مركز الدراسات والبحوث في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر].

(٢) سورة: آل عمران. آية: ١٠٤.

(٣) انظر: نظرات في مسيرة العمل الإسلامي - عمر عبيد حسنة، ٤٠.

* الفرع الثالث - الاستخفاء بالدعوة داخل (المجتمع الدعوي) سبب في

تمزيق الأمة:

إضافة إلى أن الاستخفاء بالدعوة داخل المجتمع الدعوي ابتداءً في سبيل الدعوة وإضرار بها، فكذلك هو أداة لتمزيق الأمة من وجهين:

أولاً: مع الحكام: ونخص منهم أصحاب الأنظمة التي تتسم بالجور، من خلال عدم تصورهم لأهداف الدعوة الحقيقية وحسن نية دعائها ومن خلال عدم تثبتهم من الوشاية التي قد يكون مصدرها الخصوم ولهذا فهم يضربون بيد من حديد على كل من يظنون فيه السرية فضلاً عما يجزمون بممارسته لها وتطبيقه إياها خوفاً من كون الاستخفاء بالدعوة مؤداه تأليب الناس عليهم أو قلب نظامهم استناداً إلى أن المنظمات السرية في تاريخ الأمم قديماً وحديثاً كان لها دور في ذلك والتاريخ غير نسي.

وأما أصحاب الأنظمة العادلة فتعمل الدولة على تحجيم الدعوة المشار إليها حينما تتسم بالسرية وربما معاداتها وإضعافها فإذا الاستخفاء هنا أداة لتمزيق أو اضرار العلاقة مع الحكام وولاية الأمور.

ثانياً: مع بقية المسلمين: وذلك بإيجاد هوة عميقة بين الدعوة وبين بقية المجتمع، تزداد عمقاً مع الزمن، وثغرة بين الطرفين تتسع بالباح كلما أوغلت الدعوة في الاستخفاء، نظرًا لأنهم يكتمون عن الناس ما لا يجوز كتمه، ويخفون عنهم ما لا يجوز إخفاؤه، فتظلم النفوس وتسود القلوب تجاه الدعوة والدعاة^(١).

إن العمل الدعوي السري في المجتمعات الدعوية مهما كان فيه من نفع إلا أنه

(١) انظر: الدعوة إلى الله - علي حسن عبد الحميد، ط [الثانية، عام: ١٤١٣ هـ الناشر: مكتبة الصحابة

نفع يسير تتبعه مفاسد أعظم من النفع المتوهم أو المرجوح، فهو يجبر الدعاة إلى مواقف محرجة هم في غنى عنها، ويوهن أمر الدعوة، بل ويوقع الأفراد المسلمين في تضاد بين مبدأ السمع والطاعة وبين التطبيق العملي لمبدأ السرية والخفاء وهذا التضاد خطير لأنه خلل في منهج الدعوة قد يكون سبباً في تمزيق الأمة.

لذا يجب على الدعاة تجنب الاستخفاء بدعوتهم في المجتمعات الدعوية والاقصر على الدعوة المعلنة التي تستند إلى البصيرة والاتباع، إذ الدعوة اليوم قد أعلنت، وانتشرت مبادئها، وعمَّ صيتها العالم، وسمع بها القاصي والداني، من خلال المؤلفات والقنوات الفضائية، وشبكة المعلومات (الإنترنت)، والطلاب المبتعثين، والمؤتمرات الدولية، والملتقيات العلمية، لهذا كله لا يسوغ للدعوة أن تتخفى في المجتمعات الدعوية^(١)

• المطلب الثاني: الاستخفاء بالدعوة في المجتمعات (غير الدعوية):

انطلاقاً من مضار الاستخفاء بالدعوة في (المجتمعات الدعوية) التي سبق ذكرها رأى البعض جرّ الحكم بالمنع إلى المجتمعات غير الدعوية بصورة مطلقة، وقرر البعض أن الاستخفاء بالدعوة قد انتهى إلى الأبد بأمر الله لنبينا ﷺ بالصدع بالدعوة..

وهذا القول في رأبي قد جانب الصواب من حيث إلغاء وتعطيل جزء مهم من سبيل النبي ﷺ في الدعوة وهي «مرحلة الاستخفاء» في العهد المكي، وقد قال الله ﷻ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾، ومعلوم أن سبيله في الدعوة يشمل سيره في طريق الدعوة بمرحلتها «السرية» و«الجهرية» وبعهدها «المكي» و«المدني»، باعتبارها حلقات متصل بعضها ببعض ترسم للدعاة المنهج الدعوي في كل حالاته ومآلاته،

(١) انظر: مدخل إلى علم الدعوة - د. البيانوني ص / ٢٥٤. ونظرات في مسيرة العمل الإسلامي -

وتوضح للدعاة المواقف التي قد تعترض طريق الدعوة بكافة جوانبها، وهي تعد بجملتها سبيل النبي ﷺ في الدعوة إلى الله التي تستند إلى البصيرة.

هذا السبيل الدعوي لا يجري في مضمار الناسخ والمنسوخ بل كل مرحلة تنزل منزلتها التي تناسبها حينما تتطابق الظروف وتتشابه الأحوال.

ولهذا قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «من كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف أو في وقت هو فيه مستضعف، فليعمل بآية الصبر والصفح والصفح والصفح عمن يؤذي الله ورسوله من الذين أوتوا الكتاب والمشركين.

وأما أهل القوة وإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين وبآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»^(١)

وفي ضوء ذلك يمكن أن نتساءل: أليس من الممكن أن يحتاج المسلمون في بعض الظروف والبيئات إلى أحكام مرحلة الاستخفاء التي استوعبها النبي ﷺ بفهم واع ومسلك حكيم قاد إلى النجاح، وألا يكون في ظل الأنظمة القمعية للناس في أرجاء المعمورة أن يستخفوا بدينهم وبدعوتهم تأسياً بالداعية الأول وتتبعاً لسبيله؟ يمكن إيضاح ذلك من خلال الفروع الآتية:

* الفرع الأول - تكاليف أنظمة المجتمعات (غير الدعوية) على زيادة الدعوة وسبل البقاء:

أولاً: مشاهد من تكاليف أنظمة المجتمعات (غير الدعوية):

أسواق هنا مشهدين يدلان على حال شعوب إسلامية كانت تزرع في بلادها تحت وطأة الضيم (مجتمعات غير دعوية) جرت عليها محن ومآسي استهدفت

(١) الصارم المسلول - شيخ الإسلام ابن تيمية، ط [الأولى، عام: ١٤١٧هـ، الناشر: دار ابن حزم - بيروت] ٤١٣/٢.

إيادتهم ووأد دينهم:

* المشهد الأول: المسلمون في ظل نظام حكم أسبانيا:

تمثل محاكم التفتيش أحد أسوأ فصول التاريخ دموية تجاه المسلمين، وقد بدأت عندما حانت نهاية الحكم الإسلامي في الأندلس، وسقوط آخر مدينة إسلامية بيد الأسبان وهي غرناطة بعد أن استمر حكم المسلمين لها (٨٠٠ عام) للأندلس من دون انقطاع.

الذي حدث فيما يتصل بموضوع الدراسة أنه فور دخول الأسبان إلى غرناطة نقضوا المعاهدة التي أبرموها مع حكامها المسلمين والتي تضمنت ثمانية وستين بنداً^(١) وبعد أيام عدة من النقض قام أسقف غرناطة بأرسال رسالة عاجلة لملك أسبانيا مفادها أنه قد أخذ على عاتقه حمل المسلمين في غرناطة وغيرها من مدن إسبانيا على أن يصبحوا كاثوليكاً؛ تنفيذاً لرغبة المسيح ﷺ الذي ظهر له - كما ادعى - وأمره بذلك. فأقره الملك على أن يفعل ما يشاء لتنفيذ رغبة المسيح ﷺ، عندها بادر الأسقف إلى احتلال المساجد ومصادرة أوقافها، وأمر بتحويل المسجد الجامع في غرناطة إلى كنيسة، فثار المسلمون هناك دفاعاً عن مساجدهم، لكن ثورتهم قمعت بوحشية مطلقة، وتم إعدام مائتين من العلماء المسلمين حرقاً في ساحة من الساحات العامة بتهمة مقاومة المسيحية^(٢).

وتم تشكيل محاكم التفتيش المشهورة لتبدأ بمهام البحث عن كل مسلم ومحاكمته على عدم تنصره، فهرع المسلمون إلى الجبال، وأصدرت محاكم التفتيش

(١) منها: تأمين الصغير والكبير على النفس والمال والأهل، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم وعقارهم، وأن تبقى لهم شريعتهم يتقاضون فيها، وأن تبقى لهم مساجدهم وأوقافهم.

(٢) انظر: مجلة الجندي المسلم، مقال للأستاذ: عبد الرحمن حمادي عدد ١٢٠ تاريخ ١/

الإسبانية تعليماتها لتنصير بقية المسلمين في أسبانيا، وإجبارهم على أن يكونوا نصارى، وكانت محاكم التفتيش تصدر أحكاماً بحرق المسلمين على أعواد الحطب وهم أحياء في ساحة من ساحات مدينة غرناطة، أمام الناس، كما صدر مرسوم بإحراق جميع الكتب الإسلامية والعربية، فأحرقت المصاحف وآلاف الكتب في ساحة الرملة بغرناطة، ثم تتابع حرق الكتب في جميع المدن والقرى.

وقد استمرت هذه الحملة الظالمة على المسلمين حتى عام (١٥٧٧م)، وراح ضحيتها حسب بعض المؤرخين الغربيين أكثر من نصف مليون مسلم، وتم تنصير البقية الباقية من المسلمين بالقوة، وقد عُرف المسلمون المنتصرون باسم المسيحيين الجدد تمييزاً لهم عن المسيحيين القدامى^(١) ثم صدر مرسوم بتحويل جميع المساجد إلى كنائس.

ولما تبين للمحاكم أن كل أعمال التنصير في تلك الحملة لم تؤت نفعاً، حيث تنصر المسلمون ظاهراً، ولكنهم فعلياً يمارسون الشعائر الإسلامية فيما بينهم سرّاً؛ قامت المحاكم بالبحث عن كل مسلم لتحاكمه، وهي محاكم مُنحت سلطات غير محدودة، ومارست الأساليب الكُبار في التعذيب لم يعرفها أو يمارسها أكثر الطغاة وحشية عبر التاريخ، وقد بدأت تلك المحاكم أعمالها بهدم الحمامات العربية، ومنع الاغتسال على الطريقة العربية، ومنع ارتداء الملابس العربية، أو التحدث باللغة العربية، ومنع الزواج على الطريقة العربية أو الشريعة الإسلامية، ووضعت عقوبات صارمة جداً بحق كل من يثبت أنه يرفض شرب الخمر، أو لا يتناول لحم الخنزير، وكل مخالفة لهذه الممنوعات والأوامر تعد خروجاً على الكاثوليكية، ويحال صاحبها إلى محاكم التفتيش.

(١) وعرفوا باسم (الموريسكوس) أي المسلمين الصغار.

وحيث إن المحاكم والأساليب المتبعة لم تنجح في إجبار المسلمين على ترك دينهم كما تريد الكنيسة التي أدركت مدى عمق الإيمان بالعبقيدة الإسلامية في نفوس (الموريسكيين) فقررت إخراجهم وتهجيرهم من إسبانيا، بينما بقي بعضهم مستترًا في بلاده بعد الطرد العام لهم^(١).

* المشهد الثاني: المسلمون في ظل نظام حكم الاتحاد السوفيتي:

كان عدد المسلمين في الاتحاد السوفيتي خمسين مليوناً من أصل مائتين وستين مليوناً ويمثل المسلمون أغلبية في ستة أقاليم من أصل ستة عشرة تصل نسبتهم في بعضها ٩٥٪ وبالطبع تلاشت تلك الأعداد بعد أن تنكرت الشيوعية للمسلمين وعملت على القضاء على الإسلام من خلال عدد من الأساليب على المدى الطويل ففي عام ١٩٢٨م ألغيت المحاكم الشرعية، ومنعت سائر الأنشطة الدينية، واعتقل عدد من العلماء وشرذ آخرون واشتدت حملات الإرهاب الشرسة على المسلمين فاعتقل أكثر من مليون ونصف المليون، وفي عام ١٩٢٩م هدم وأغلق أكثر من عشرة آلاف مسجد، وأكثر من أربعة عشر ألفاً من المدارس الإسلامية، وحرقت المصاحف ونفي المسلمون من الجمهوريات الإسلامية التي تحت سيطرة النظام إلى مجاهل سيبيريا ومن ثم توطين روس شيوعيون مكانهم^(٢).

ولقد عمل النظام في الاتحاد السوفيتي في تلك الحقبة على أكبر عملية في التاريخ للقضاء على الإسلام بأساليب علمية وتكنولوجية بصورة محكمة وتحت نظام فاق جميع الأنظمة الاستبدادية التي عرفت في التاريخ الحديث. وتم سن

(١) انظر: مجلة الجندي المسلم عدد ١٢٠ تاريخ ١/٧/٢٠٠٥م مقال للأستاذ: عبدالرحمن حمادي.

(٢) انظر: محنة الأقليات المسلمة في العالم - محمد عبدالله السمان ط [الأولى، عام: ١٤٠٩هـ

قوانين تحرم على المسلمين الصلاة والصيام والحج والزكاة، ومنعت طباعة المصحف وأي كتاب ديني، وفرضت رقابة صارمة على تداول هذه الكتب وعلى منع ممارسة الشعائر الدينية

كما أنشئت في المقابل مدارس لتعليم أطفال المسلمين أصول الإلحاد وسخرت الدولة عشرات الألوف من خبراء الإلحاد، وأصدرت ملايين النسخ من الكتب الإلحادية ومئات الصحف والمجلات والأفلام لمحاربة الإسلام وتشويه تاريخه واستطاعت الدولة الشيوعية أن تنشئ أجيالاً من أبناء المسلمين لم يسمعو كلمة طيبة عن الإسلام. وكان الشباب المسلم يعلم أن الإلحاد هو شرط الحصول على وظيفة، وهو شرط البقاء والترقي فيها وهو شرط الإفلات من اضطهاد جهاز المخابرات. فأصبحت الكثرة الغالبة من أبناء المسلمين الذين خلفهم الاتحاد السوفيتي يجهلون كل شيء عن دينهم، ومع ذلك فإن جهود السوفييت في نشر الإلحاد بين المسلمين على مدى خمسة وسبعين عاماً لم تؤت ثمارها المطلوبة ولم تستطع تحقيق أهدافها كاملة في استئصال الإسلام من الاتحاد السوفيتي، وقد عبر المخططون والخبراء عن خيبة أمل كبيرة.

ولذلك سخرت الدولة مجموعة كبيرة من علماء الاجتماع والدراسات السكانية خلال الثمانينيات من القرن العشرين لدراسة هذه الظاهرة في مجتمعات المسلمين، وقد أثبتت هذه الدراسة أن الإسلام في الاتحاد السوفيتي - رغم كل شيء - لم يمت وإنما لا يزال ينبض بالحياة وأن الشعوب المسلمة لا تزال تتنفس الإسلام وتمسك بعقيدتها وتمارس شعائر دينها بأساليب خفية^(١).

(١) انظر: التحدي الصهيوني في إطاره التاريخي - د. محمد يوسف عدس ص / ٣٣.

* ثانيًا: سبل بقاء المسلمين في تلك الحال:

من يستنطق تاريخ صراعات الأمم وما انطوى عليه من نماذج الإبادة والتعذيب التي لحقت بالمسلمين؛ يتضح له أن المسلمين في تلك (المجتمعات غير الدعوية) استطاعوا الثبات والصمود في وجه محاولات طمس الهوية واستئصال الدين من خلال أمرين بعد توفيق الله تعالى:

الأول: المحافظة على الجوهر من خلال الاستخفاء بالإيمان والعبادة:

حيث يشرع للمسلم أن لا يعلن إسلامه ما دام سيتعرض لأذية ويكفي إسلامه سرًا كما قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾^(١)، فهذا الرجل مؤمن بنص القرآن مع أنه كان يخفي إيمانه عن فرعون وقومه خوفًا على نفسه، وفي قصة إسلام أبي ذر رضي الله عنه قال له الرسول ﷺ: يا أبا ذر اكنم هذا الأمر (أي: أمر الدعوة وأمر إسلامه)^(٢). وفيه دليل على جواز كتم الإيمان لمصلحة أو خشية ضرر ونحو ذلك.

ومما يدل على ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ ۗ إِلَّا مَن أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

وَقَالَ: ﴿ إِلَّا أَنْ تَكْفُرُوا مِنْهُمْ تَقَنَّةً ﴾ وَهِيَ تَقِيَّةٌ، وَقَالَ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَقَّعْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أُنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۗ ﴾ الآية إلى قوله: ﴿ عَفْوًا عَفْوًا ۗ ﴾ قال البخاري: «فَعَدَّرَ اللَّهُ الْمُسْتَضْعَفِينَ الَّذِينَ لَا يَمْتَنِعُونَ مِنْ تَرْكِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَالْمُكْرَهُ لَا يَكُونُ إِلَّا مُسْتَضْعَفًا غَيْرَ مُمْتَنِعٍ مِنْ فِعْلِهِ مَا أَمَرَ بِهِ وَقَالَ

(١) سورة: غافر، آية: ٢٨.

(٢) تقدم تخريجه.

النَّبِيُّ ﷺ: «الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ»^(١) فقد ذكر المفسرون في شأن نزول الآية أمورًا تتقارب معناها وإن اختلف أشخاصها وأمكنتها.

قال ابن حجر رحمه الله: وَالْمَشْهُورُ أَنَّ الْآيَةَ الْمَذْكُورَةَ نَزَلَتْ فِي عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ كَمَا جَاءَ مِنْ طَرِيقِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّارًا فَعَذَّبُوهُ حَتَّى قَارَبَهُمْ فِي بَعْضِ مَا أَرَادُوا ، فَشَكَى ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟ قَالَ: مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ، قَالَ: فَإِنْ عَادُوا فَعُدْ»^(٢).

فنزلت الآية. والآية دالة على جواز إظهار غير ما يبطن من دون قصده عند الضرورة، ومسوغ ذلك خوف الضرر على النفس وما يتصل بذلك.

ومن ناحية أخرى الآية وإن اختص مضمونها بمسألة الكفر والإيمان إلا أن حكمها جارٍ في غيرها بطريق الأولى.. فإذا جاز الاستسرار في هذه المسألة المهمة جاز في غيرها.

وجاء عن النبي ﷺ ما يدل على مشروعية الاستسرار في العبادة في أحوال خاصة فعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَحْصُوا لِي كَمْ يَلْفِظُ الْإِسْلَامَ؟ قَالَ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَخَافُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ مَا بَيْنَ السِّتِّ مِائَةٍ إِلَى السَّبْعِ مِائَةٍ؟ قَالَ: إِنَّكُمْ لَا تَذَرُونَ لَعَلَّكُمْ أَنْ تُبْتَلُوا».

قَالَ: فَابْتَلَيْنَا حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ مِنَّا لَا يُصَلِّي إِلَّا سِرًّا^(٣).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإكراه باب: قوله تعالى إلا من أكره.

(٢) قال ابن حجر: وَهُوَ مُرْسَلٌ وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ وَأَخْرَجَهُ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ سِيرِينَ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَقِيَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ وَهُوَ يَبْكِي فَجَعَلَ يَمْسَحُ الدَّمْعَ عَنْهُ وَيَقُولُ أَخَذَكَ الْمُشْرِكُونَ فَعَطَّوْكَ فِي الْمَاءِ حَتَّى قَلَّتْ لَهُمْ كَذَا إِنْ عَادُوا فَعُدْ» وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ مَعَ إِسْرَالِهِ أَيْضًا وَهَذِهِ الْمَرَاسِيلُ تَقْوِي بَعْضُهَا بَعْضًا. فتح الباري ٣١٢/١٢.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: الاستسرار بالإيمان للخائف.

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «وأما قوله: «ابتلينا فجعل الرجل لا يصلي إلا سرًّا» فلعله كان في بعض الفتن التي جرت بعد النبي ﷺ فكان بعضهم يخفي نفسه ويصلي سرًّا مخافة من الظهور والمشاركة في الدخول في الفتنة والحروب^(١).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ حول ذلك: «إن المؤمن المستضعف هناك قد يكتُم إيمانه واستنانه، كما كتم مؤمن آل فرعون إيمانه، وكما كان كثير من المؤمنين يكتُم إيمانه حين كانوا في دار الحرب»^{(٢)(٣)}.

الثاني: توسيع دائرة الإسلام من خلال الاستخفاء بالدعوة إلى الله: حيث يشرع في هذه الحال وفي مثل تلك الأنظمة (المجتمعات غير الدعوية) الاستخفاء بدعوة الناس إلى الله تعالى رغم ما يكتنف الحال من أمور تستلزم الاستسرار بالدعوة إلا أن سبل البقاء وطلب الأجر تحتم عليهم أنهم كما حافظوا على جوهر عقيدتهم وعباداتهم بذل جهودهم في مد المسلمين القلة بمسلمين جدد يدخلون في دين الله أفواجًا يذودون عن دينهم وإيمانهم، وسيرة النبي ﷺ في تلك المرحلة تفتح أمام الدعاة خيارات متعددة تتناسب مع الظروف المقاربة لها بمرونة في

(١) شرح صحيح مسلم - للنووي ١ / ١٨٠.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمه ٤ / ١٤٩.

(٣) وسرد مظاهر استخفاء المسلمين في المشهدين السابقين يخرج بالبحث عن مقصوده لكن ذكر الدكتور علي المتصر الكتاني أنه التقى في كوبنهاجن (الدنمارك) بتاريخ ٥ / ١١ / ١٩٧٣ م أحد المهاجرين من الأندلس وهو من مواليد برشلونه ونشأ بها وأسلم سنة ١٩٦٩ م، وقد قال عن سبب إسلامه: كنت طفلًا صغيرًا عند احتضار جدتي، فجدتني إليها، وهمست في أذني قائلة: إن الدين النصراني ليس ديننا وليس هو الدين الحق، عندما تكبر حاول أن تعرف دينك. فلما كبرت درست تاريخ أسبانيا، وفهمت قصد جدتي، فتعلمت الدين الإسلامي، واقتنعت به، وأعلنت إسلامي في باكستان، حيث أمضيت ستين لأتقن تعليمي. انظر: متابعات ثقافية - عبد الجبار الرفاعي.

معالجة أمورها ومواجهة أحداثها^(١) ليتمكن الدعاة على قدر وسعهم من بناء قاعدة صلبة تحمل هذا الدين، وتحافظ على ما لدى المستجيبين من أمور العقيدة والشريعة والأخلاق وذلك وفق عدة ضوابط.

وبهذا يعلم أنه إذا خشي المسلمون على أنفسهم ودينهم في (مجتمع غير دعوي) فإنه يسعهم بلا ريب الاستخفاء وأن يتغشاهم الاستسار بإيمانهم ودعوتهم إلى حين يأتي أمر الله بالفرج استثناءً بدعوة المصطفى ﷺ في تلك المرحلة.

* الفرع الثاني - الاستخفاء بالدعوة في (المجتمعات غير الدعوية) مشروع

بضوابط:

ذكرنا فيما سبق أن الاستخفاء بالدعوة في مجتمع غير دعوي مشروع وذكرنا بعض الأمثلة لمجتمعات غير دعوية كانت تهدف إلى استتصال الإسلام وإيادته أتباعه على مدى عشرات السنين. إلا أن من المهم إبان الاستخفاء بالدعوة في ظل الظروف والأحوال المذكورة في المجتمعات غير الدعوية؛ مراعاة أمور ينبغي مراعاتها ليكون الاستخفاء في إطار المشروع وهي كما يلي:

أولاً - أن يكون العمل الدعوي منضبطاً بالحكمة وموزوناً بميزان الشرع، إذ الحماسة وحدها لا تكفي بل لا بد أن يكون العمل خالصاً لله تعالى صواباً على وفق ما جاء به رسول الله.

ثانياً - أن لا يتداخل الاستخفاء بالدعوة مع التحزب الذي ورد النهي عنه فقد قامت دعوة النبي ﷺ في مرحلة الاستخفاء على الشمول والعالمية.

وأما التحزب فأمر آخر وذلك لأنه وليد التفرق وسبب في ضعف الأمة خاصة في ظل الدولة الإسلامية. قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا .. مِنَ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ

(١) انظر: عشرات وسقطات - زهير سالم، ص / ٣٠.

وَكَاثُوا شَيْعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿١١﴾ وقال رسول الله ﷺ: «لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ..»^(٢)

ثالثاً - أن يكون الاستخفاء بالدعوة قيادة وريادة وتوجيهاً وإرشاداً، للعلماء الراسخين، باعتبارهم الذين يقودون الناس بكتاب الله وسنة رسوله واتصافهم ببعد نظرهم في فقه الموازنات بين المصالح والمفاسد، وما لم يكن الأمر كذلك فإن الدعوة ستتحرف عن مسارها إلى مسارات الله أعلم بها^(٣)

رابعاً - أن يكون الاستخفاء بالدعوة في ظل الظروف المشار إليها تحت الوسع والقدرة وإلا فإن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها قال شيخ الإسلام: «والله تعالى بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، والنبي ﷺ دعا الخلق بغاية الإمكان، ونقل كل شخص إلى خير مما كان عليه بحسب الإمكان»^(٤).

خامساً - أن يكون الاستخفاء بالدعوة مسترشداً ومستنيراً بسمات استخفاء النبي ﷺ بالدعوة وهو ما تعطرت به ورقات هذه الدراسة حتى يكون له ثمرته وفائدته المرجوة.

* * *

(١) سورة الروم. آية: ٣١ و٣٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث جبير بن مطعم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: مؤاخاة النبي ﷺ بين برقم: ٢٥٣٠.

(٣) انظر: العلاقة بين العلماء والناس - د. سيد محمد ساداتي، ص/ ١٠٨.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية - جمع وترتيب الشيخ عبد الرحمن بن قاسم وابنه

الخاتمة

بنهاية هذا المبحث تكون الدراسة قد أجابت بحمد الله تعالى عن التساؤلات التي أثيرت في نطاق موضوع استخفاء النبي ﷺ بالدعوة إلى الله في العهد المكي، وانتهت إلى ما ستجمله في النتائج الآتية.

* نتائج الدراسة:

١- استخفاء النبي الكريم ﷺ بالدعوة هو مرحلة من مراحل الدعوة وهي ثابتة من خلال النصوص والأخبار على نحو ما ذكر، واستمرت ثلاث سنوات طويت بعدها مرحلة الاستخفاء وابتدأت مرحلة الجهر بالدعوة .

٢- لم يكن استخفاء النبي ﷺ بالدعوة استخفاء مطلقاً، بل كان استخفاء له سماته العامة والخاصة، وامتيزاً بالحكمة والبصيرة، وهو ما تم الحديث حوله في طيات هذه الدراسة.

٣- كان الاستخفاء بالدعوة يقوم على الدعوة الفردية بوسيلة القدوة الحسنة، والقول المباشر الذي كان يتسم بأسلوب النصح، وتم الاقتصار على ذلك بناء على ما اقتضته طبيعة الاستخفاء.

٤- أن الاستخفاء بالدعوة بكامل تفاصيلها التي جاءت في الدراسة مرحلة من مراحل الدعوة إلى الله انتهت بقوله ﴿ فَأَصْدَعُ بِمَا تُوْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿ أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾^(٢) ولهذا فإن الاستئان بدعوته في العصر الحاضر مناط بمرحلة

(١) سورة: الحجر. آية: ٩٤.

(٢) سورة: المائدة. جزء من آية رقم ٣.

(الدعوة الجهرية) إذ هي الأصل وهو ما استقر عليه التشريع الإلهي هذا من جهة. من جهة أخرى العلة التي لأجلها كان (الاستخفاء بالدعوة) قائماً في العهد النبوي نجدها منتفية في العصر الحاضر في الجملة، باعتبار انتشار الإسلام اليوم وظهور مبادئه علناً على مرأى ومسمع من العالم خاصة في ظل وسائل الاتصال المتقدمة التي تصل بالدعوة إلى كل مكان دون تبعات أو خوف من وأد الدعوة كما كان في بداية الدعوة.

٥- إذا توفرت ظروف مقاربة للظروف التي مر بها النبي ﷺ في تلك المرحلة، وهذا محتمل في البلاد التي تتخذ سياسة (المجتمعات غير الدعوية) بأشكالها وأطيافها، وهو ما حدث في الماضي كما تقدم، وسيحدث أيضاً في آخر الزمان وهو ما جاءت الإشارة إليه في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا..»^(١)، وبناء عليه فالاستخفاء بالدعوة في ضوء مسلك الرسول ﷺ المشار إليه بالضوابط التي سبق بيانها يكون حينئذ مشروعاً، بهدف مساندة حال التضييق والتنكيل الذي قد تلقاه الدعوة وأتباعها مما يجعلها في أمان من الصدام لتتمكن الدعوة من البقاء حتى يتهيأ لها الانتقال من حال الضعف إلى حال القوة في الجانب الديني، كما فعل ﷺ، والله عاقبة الأمور

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، برقم: ٢٠٨.

المراجع

- ١- الاستيعاب في معرفة الأصحاب - لابن عبد البر، ط [الأولى، عام ١٤١٢ هـ
الناشر: دار الجيل - بيروت].
- ٢- الإصابة في تمييز الصحابة - للحافظ ابن حجر العسقلاني، ط. [الأولى، عام:
١٤١٥ هـ، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت].
- ٣- أضواء على دراسة السيرة - صالح أحمد الشامي، ط [الأولى، عام: ١٤١١ هـ
الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت].
- ٤- أعلام النبوة - لأبي الحسن الماوردي، ط [الأولى، عام: ١٩٨٧ م الناشر: دار
الكتاب العربي - بيروت] ت: محمد المعتصم بالله البغدادي.
- ٥- الأمر بلزوم جماعة المسلمين وإمامهم - عبدالسلام بن برجس، ط [الأولى،
عام: ١٤١٨ هـ، الناشر: دار الوطن - الرياض].
- ٦- البداية والنهاية - للحافظ ابن كثير، ط [الأولى، عام: ١٤١٩ هـ الناشر: دار
هجر - مصر].
- ٧- تاريخ الأمم والملوك - للإمام الطبري، ط [الأولى، عام: ١٤٠٧ هـ، الناشر:
دار الكتب العلمية - بيروت].
- ٨- جامع البيان عن تأويل آي القرآن - للإمام الطبري، ط [الأولى، عام:
١٤٢٢ هـ، الناشر: دار هجر - القاهرة] ت: د. عبد الله التركي.
- ٩- الجامع الصحيح للإمام الترمذي، ط [الأولى، عام: ١٤٠٨ هـ، الناشر: دار
الكتب العلمية - بيروت].
- ١٠- الجهاد والقتال في السياسة الشرعية في صدر الإسلام وفقه الإسلام والعصر
الحديث - د. محمد خير هيكل، ط [الثانية، عام: ١٤١٧ هـ، الناشر: دار البيارق -

بيروت].

١١- الجواب الصحيح - شيخ الإسلام ابن تيمية، ط [الأولى، عام: ١٤١٤هـ
الناشر: دار العاصمة - الرياض].

١٢- الجواهر الحسان في تفسير القرآن - للثعالبي، ط [الأولى، مؤسسة الأعلمي
للمطبوعات - بيروت].

١٣- حديث خيثمة بن سليمان بن حيدرة أبو الحسن الأطرابلسي، ط [الأولى،
عام: ١٤٠٠هـ الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت] ت: د. عمر عبد السلام تدمري.

١٤- حلية الأولياء - لأبي نعيم، ط [الرابعة، عام: ١٤٠٥هـ الناشر: دار الكتاب
العربي - بيروت].

١٥- الدعوة الإسلامية في عهدنا المكي - د. رءوف شلبي، ط [الأولى، الناشر:
دار القلم - الكويت].

١٦- الدعوة إلى الله - علي حسن عبد الحميد، ط [الثانية، عام: ١٤١٣هـ الناشر:
مكتبة الصحابة - جدة].

١٧- الرحيق المختوم - للمبارك فوري، ط [الثانية، عام: ١٣٩٦ هـ دار الوفاء -
المنصورة].

١٨- زاد المعاد في هدي خير العباد - للإمام ابن قيم الجوزية، ط [الرابعة عشر،
عام: ١٤٠٧هـ الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت].

١٩- سيرة ابن إسحاق، ط [الأولى الناشر: معهد الدراسات والأبحاث].

٢٠- السيرة الحلبية السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون - علي بن برهان
الدين الحلبي، ط [الأولى، عام: ١٤٠٠ هـ الناشر: دار المعرفة - بيروت].

٢١- السيرة النبوية الصحيحة - د. أكرم ضياء العمري، ط [السادسة، عام:
١٤٢٦هـ، الناشر: مكتبة العبيكان - الرياض].

- ٢٢- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية - د. مهدي رزق الله ط [الثانية، عام: ١٤٢٤هـ، الناشر: دار إمام الدعوة - الرياض].
- ٢٣- السيرة النبوية لابن هشام، ط [الأولى، عام ١٤١١هـ، الناشر: دار الجيل - بيروت] ت: طه عبد الرؤوف سعد.
- ٢٤- شرح أصول اعتقاد أهل السنة - اللالكائي، ط [الأولى، عام: ١٤٠٢هـ، الناشر: دار طيبة - الرياض] ت: د. أحمد سعد حمدان.
- ٢٥- الصارم المسلول - شيخ الإسلام ابن تيمية، ط [الأولى، عام: ١٤١٧هـ، الناشر: دار ابن حزم - بيروت].
- ٢٦- صحيح الإمام البخاري ط [الأولى، عام: ١٤١٧هـ، الناشر: دار السلام - الرياض].
- ٢٧- صحيح الإمام مسلم ط [الأولى، عام: ١٤١٩هـ، الناشر: دار السلام - الرياض].
- ٢٨- صحيح السيرة النبوية، ط [الأولى، عام: ١٤٢١هـ، الناشر: المكتبة الإسلامية - الأردن].
- ٢٩- صفة الصفوة - لابن الجوزي، ط [الثانية، عام ١٣٩٩هـ، الناشر: دار المعرفة - بيروت] ت: د. محمد رواس قلعه جي.
- ٣٠- الطبقات الكبرى - لابن سعد، ط [الأولى، الناشر دار صادر - بيروت].
- ٣١- ظلال الجنة في تخريج أحاديث السنة - للألباني، ط [الثالثة، عام: ١٤١٣هـ، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت].
- ٣٢- عثرات وسقطات - زهير سالم، ط [الأولى، عام: ١٤٠٨هـ، الناشر: دار عمار - الأردن].
- ٣٣- فتح الباري بشرح صحيح البخاري - للحافظ ابن حجر، ط [الأولى، عام:

- ١٤٠٧هـ الناشر: دار الريان للتراث - القاهرة].
- ٣٤- قالوا عن الإسلام - د. عماد الدين خليل، ط [الأولى، عام: ١٤١٢هـ الناشر: الندوة العالمية للشباب الإسلامي - الرياض].
- ٣٥- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية - جمع وترتيب الشيخ عبد الرحمن بن قاسم وابنه، ط [الأولى، عام: ١٤١٦هـ الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة].
- ٣٦- محنة الأقليات المسلمة في العالم - محمد عبدالله السمان ط [الأولى، عام: ١٤٠٩هـ الناشر: دار الاعتصام].
- ٣٧- المدخل إلى علم الدعوة - محمد أبو الفتح البيانوني، [الرابعة، عام: ١٤١٨هـ الناشر: إدارة الشؤون الإسلامية - قطر].
- ٣٨- المذكر والتذكير - لابن أبي عاصم، ط [الأولى، عام: ١٤١٣هـ الناشر: دار المنار - الرياض] ت: قاسم الراددي.
- ٣٩- المستدرك على الصحيحين - للحاكم، ط [الأولى، عام: ١٤١١هـ الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت].
- ٤٠- مسند الإمام أحمد، ط [الثانية، عام: ١٤٢٠هـ الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت] ت: الشيخ: شعيب الأرنؤوط.
- ٤١- مشكاة المصابيح للتبريزي، ط [الثالثة، عام: ١٤٠٥هـ الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت] ت: الألباني.
- ٤٢- معالم التنزيل - للإمام أبي محمد الحسين البغوي، ط [الأولى، عام: ١٤٠٩هـ الناشر: دار طيبة - الرياض]. ت: محمد عبد الله النمر وآخرون.
- ٤٣- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - لابن الجوزي، ط [الأولى، الناشر: دار صادر بيروت].

- ٤٤- منهج النبي ﷺ في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة - د. محمد أمحزون، ط [الثانية، عام: ١٤٢٤هـ، الناشر: دار السلام - القاهرة].
- ٤٥- نظرات في مسيرة العمل الإسلامي - عمر عبيد حسنة، ط [الثانية، عام: ١٤٠٥هـ الناشر: مركز الدراسات والبحوث في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر].
- ٤٦- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - للواحدي، ط [الأولى، عام ١٤١٥هـ الناشر: دار القلم - دمشق] ت: صفوان عدنان داودي.
- المجلات:
- ٤٧- مجلة الجندي المسلم مقال للأستاذ: عبدالرحمن حمادي عدد ١٢٠ تاريخ ٢٠٠٥/٧/١م.
- ٤٨- مجلة الوعي الإسلامي مقال بعنوان: تحليل الدعوة في عصرها المكي - د. عماد الدين خليل عدد: ١٠٠ عام ١٣٩٣هـ الكويت.

فهرس الموضوعات

٣	تمهيد
٧	مرحلة الاستخفاء في ضوء النصوص
٧	دلالة نصوص القرآن الكريم
٩	دلالة نصوص السنة الشريفة
١٠	دلالة أقوال الصحابة
١١	دلالة أقوال العلماء والمؤرخين المتقدمين
١٣	معالم دعوة النبي ﷺ في مرحلة الاستخفاء
١٣	ميدان الدعوة في مرحلة الاستخفاء
١٣	أبرز وظائف دار ابن الأرقم
١٥	أولاً: مباشرة الدعوة مع المستجيبين لها ومن يرغب من الناس بالإسلام ...
١٧	ثانياً: التخطيط للدعوة
١٨	ثالثاً: توثيق المدعويين صلتهم بالله تعالى وتعليمهم
١٩	وسائل وأساليب الدعوة في مرحلة الاستخفاء
٢١	أولاً - القدوة الحسنة
٢١	ثانياً- القول المباشر
٢٢	مضمون الدعوة في مرحلة الاستخفاء
٢٢	التوحيد
٢٣	العبادة (الصلاة)
٢٤	صلة الأرحام
٢٥	مكارم الأخلاق
٢٦	أصناف المدعويين في مرحلة الاستخفاء

- ٢٦ أولاً: دعوة النبي أهل بيته
- ٢٩ ثانياً: دعوة النبي ﷺ صاحبه
- ٣٠ ثالثاً: دعوة النبي ﷺ لمن توسم فيه الخير
- ٣٦ * مفهوم الاستخفاء في دعوة النبي ﷺ وسماته
- آراء بعض المعاصرين حول مفهوم استخفاء النبي ﷺ بالدعوة ومناقشتها:
- ٣٧ آراء بعض المعاصرين حول مفهوم استخفاء النبي ﷺ بالدعوة
- ٣٧ الاتجاه الأول
- ٣٧ الاتجاه الثاني
- ٣٧ الاتجاه الثالث
- ٣٨ مناقشة الآراء السابقة
- ٤٠ * سمات الاستخفاء في دعوة النبي ﷺ
- السمات العامة:
- ٤٠ الهدف العام من الاستخفاء
- ٤١ التدرج في إعلان الدعوة
- السمات الخاصة:
- ٤٢ في جانب المدعويين
- ٤٧ في جانب ميدان الدعوة
- ٤٩ في جانب وسائل الدعوة وأساليبها
- ٥٠ في جانب مضمون الدعوة
- ٥٠ خلاصة سمات استخفاء النبي ﷺ بالدعوة
- ٥٣ * تطبيقات الاستخفاء بالدعوة في العصر الحاضر
- الاستخفاء بالدعوة في المجتمعات الدعوية
- ٥٤ الاستخفاء بالدعوة داخل (المجتمعات الدعوية) ابتداءً في سبيل الدعوة
- ٥٧ الاستخفاء بالدعوة داخل (المجتمعات الدعوية) إضراراً بالدعوة
- ٥٩ الاستخفاء بالدعوة داخل (المجتمع الدعوي) سبب في تمزيق الأمة
- الاستخفاء بالدعوة في المجتمعات (غير الدعوية)
- ٦٠

- ٦١ تكاليف أنظمة المجتمعات (غير الدعوية) على إبادة الدعوة وسبل البقاء
- ٦١ * مشاهد من تكاليف أنظمة المجتمعات (غير الدعوية)
- ٦٢ المشهد الأول: المسلمون في ظل نظام حكم أسبانيا
- ٦٤ المشهد الثاني: المسلمون في ظل نظام حكم الاتحاد السوفيتي
- ٦٦ * سبل بقاء المسلمين في تلك الحال
- ٦٦ الأول: المحافظة على الجوهر من خلال الاستخفاء بالإيمان والعبادة
- ٦٨ الثاني: توسيع دائرة الإسلام من خلال الاستخفاء بالدعوة إلى الله
- ٦٩ الاستخفاء بالدعوة في (المجتمعات غير الدعوية) مشروع بضوابط
- ٧١ الخاتمة
- ٧١ نتائج الدراسة
- ٧٣ المراجع
- ٧٨ فهرس الموضوعات